



شريف الشوباشي

لتحيا اللغة العربية:

يسقط سيديويه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

لتحيا اللغة العربية..

# يسقط سيويه

شريف الشوباشي



الجمعية المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٤

مكتبة جامعة القاهرة

ديفيد ليدل

الغلاف للفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتفصيل

---

صبري عبد الواحد



«إن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين....  
ولكنها ملكٌ للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال»

**د. طه حسين**

**مستقبل الثقافة في مصر**

## مقدمة

أصبحت بصدمة في أحد أيام مارس ٢٠٠١ عندما فتحت العدد السنوى من «الألنك»، والذي كان صادرا قبلها بأيام قليلة. و«الألنك» هو مطبوعة سنوية تحمل المعلومات الأساسية في كافة المجالات وآخر الإحصائيات العالمية. ومن عادتي أن أتابع في الألنك آخر أرقام تعداد السكان في دول العالم وفي أكبر المدن؛ ومعدلات النمو، وكذلك عدد أبناء كل ديانة والناطقين بأهم لغات العالم، ومعلومات أخرى كثيرة ذات فائدة كبيرة.

أما عن الصدمة، فكانت عندما جلت بنظري في جدول أهم اللغات المتداولة في العالم، فلم أجد العربية في مكانها المعتاد بهذه المطبوعة. وأعدت قراءة جدول أهم اللغات عدة مرات وأنا في حيرة شديدة: هل هناك مشكلة أصابت نظري ؟ أم أن اللغة العربية سقطت منهم سهواً .. أم ماذا ؟

وعندما فتشت في الجدول الموسع للغات المنتشرة في العالم، والذي يضم نحو ٢٣٠ لغة. أدركت الحقيقة التي أثارتنى بقدر ما

أزعجتى. فمطبوعة «الألنك» لم تعد تعتبر العربية لغة قائمة بذاتها، على أساس أن اللغة هى أداة التفاهم اليومى بين الناس وليست أداة الدرس والعلم. وهم يعتبرون أن العربية صارت لغة لقراءة الكتب والمراجع.

أما لغة التفاهم فى العالم العربى فهى اللهجات مثل المصرية والسورية والمغربية. وباختصار فهم قرروا أن يعتبروا العربية من اللغات الميتة التى يعرفها البعض، زاد أو قل عددهم، لكنهم لا يستخدمونها فى تعاملهم اليومى.

ومن الممكن أن يكون أول رد فعل لنا أن ننتفض صائحين : «هيهات .. وموتوا بغيظكم أيها الحاقدون .. ووالله هذا لن يكون أبدا ..» وأنا أقول: إن شاء الله هذا لن يكون .. لكن هذا لا يكفى. فهذه المطبوعة تعتبر من المطبوعات الجادة التى يعتد بها فى العالم، وإن كانت لا تخلو من الأغراض الخبيثة، وخاصة حيال الإسلام والعرب.

ومع ذلك، فإن كبار الكتاب والمتخصصين فى العالم، وخاصة فى الغرب؛ يعدونها من أهم مراجعهم. وبالتالى فمن الخطأ أن نأخذ موقف هذه المطبوعة من العربية بالاستخفاف والتعالى، بل ومن مصلحتنا أن نعتبره جرس إنذار علينا أن نستمع إلى ما يحمله رنينه إلينا بكل جدية وحرص حتى وإن كرهنا محتواه.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن هناك جامعات ومعاهد لغات فى أوروبا وغيرها تقوم بتدريس اللهجات عوضا عن العربية، بل إنهم يخبرون

الطلبة الراغبين فى دراسة العربية بين الفصحى وإحدى اللهجات العامية، وهنا يتضح لنا مدى خطورة الموقف، بل إن مراكز تعليم اللغة فى البلدان العربية تفعل نفس الشئ مع الأجانب المبتدئين فى تعلم لغتنا.

والأكثر من ذلك أن هناك محاولات جادة لتقعيد اللهجات حتى تصير بمثابة لغات كاملة الأركان لها قواعد النحو والصرف الخاصة بها.

وكما نثبت فى هذا الكتاب فإن اللهجات كانت موجودة دائماً، واللغة الفصحى التى نرمر إليها أحياناً بلغة سيبويه لم تكن فى يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومية، اللهم إلا فى فترة وجيزة جداً وفى رقعة جغرافية محدودة بالجزيرة العربية. فما الذى استجد حتى نزرع اليوم من اقتحام اللهجات لحيز التعامل اللغوى بين العرب ؟

الجديد هو أننا نعيش فى عصر يعرف باسم عصر العولمة. وأيا كان موقفنا من تلك العولمة، فإن لها بالتأكيد آثاراً سلبية على الثقافات الإقليمية وعلى كل مقومات الحضارات ومن بينها اللغات.

والعولمة بمعناها السياسى والاقتصادى ذوبان الحدود بين الدول والتجمعات الإقليمية. لكن معناها الثقافى عميق، وقد يكون أكثر تأثيراً على الشعوب، فالعولمة قد تؤدى إلى هيمنة ثقافة واحدة على العالم، مما يترتب عليه انكماش مقومات الثقافات الأخرى التى تبلورت من خلال حقب التاريخ المتعاقبة. وبالتأكيد أن اللغة من أبرز مقومات الشخصية الإنسانية ولا بد بالتالى أن تتأثر بالعولمة.

الجديد أيضا هو أن وسائل الإعلام الحديثة جعلت أدوات التفاهم الشفهية تنافس المكتوبة، بل وتتفوق عليها أحيانا وتسحب من تحتها البساط. ففي الماضي كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال وحفظ المعلومات هي الكتابة. أما منذ نهاية القرن العشرين فقد ظهرت الوسائل السمعية والبصرية التي جعلت للكلمة المنطوقة أهمية كبرى لم تكن لها بهذا القدر منذ عرف الإنسان الكتابة، وانطوى عندئذ عصر الثقافات الشفهية. فالتسجيلات الصوتية والصورة صارت هي الأخرى وسائل حيوية لنقل المعلومات وتخزينها كمراجع للمعرفة.

وأخيرا وليس آخرا فمن المؤكد أن هناك من لا يريد للعالم العربي أن يكون واحدا ويأمل في قرارة نفسه تمزيق أو اصر هذا العالم. وحيث أن أهم ما يربط بين العرب هو لغتهم، فإن القضاء على هذه اللغة سيؤدي إلى نهاية عالمنا العربي. وربما كان هذا هو الهدف الخفى من وراء المشروعات الغربية المطروحة على الساحة في بداية القرن الحادى والعشرين.

وأمام هذه التحديات الخطيرة فإن اللغة العربية تمر الآن بمفترق طرق حيوى. إما أن تجدد نفسها فتبقى دائما لغة العرب المشتركة.. أو أن تتوقع على نفسها فتواجه بالفعل خطر الزوال لحساب اللهجات كما حدث للغة اللاتينية في القرون الوسطى الأوروبية. وهذا الاحتمال، وإن كان بعيدا، إلا أنه ليس من دروب الخيال العلمى.



والمشكلة هي أن اقترابنا من قضية اللغة مغلوط من أساسه. فهو يقوم على فرضية نعوها من المسلمات، وهي أن مشكلة اللغة تكمن في الناطقين بها من العرب. وكل من يتصدى للحديث عن اللغة هذه الأيام يسخر من جميع من يخطئون فيها ويستهزئ بالآخرين وكأنه معصوم من الخطأ في اللغة. فالمنطق السائد في هذا الموضوع يشابه ما طرحه الشاعر مرسى جميل عزيز في أغنية «سيرة الحب» التي غنتها سيدة الفناء العربي أم كلثوم عن مشكلات الحب ومن هو المتسبب فيها حيث تقول: «العيب فيكم يا في حباييكم.. أما الحب.. يا روحى عليه». فالخطأ إذا ليس في الحب وإنما في كل من يمارسونه بأسلوب خاطئ.

ولو كان من الممكن أن تنطبق هذه المقولة على الحب لأنه قيمة مجردة، فإنه لا يمكن أن تتسحب على اللغة. فاللغة كائن حي لا بد أن تتغير بتغير الوقت وأن تجارى الزمان. وبالتالي فأنا أقول إن الخطأ لا يقع بالكامل على مستخدمى العربية لكنه يقع أساسا على عائق اللغة نفسها.

وأقول لكل من يتعذب من جراء تعلم اللغة أو يشعر بعقدة نقص لعدم إجادته العربية إجابة تامة : لا تقلقوا.. فالعيب ليس فيكم، ولكنه في اللغة التى لم تشملها سنة التطوير. وأستطيع إنطلاقا من هذا أن أبرئ ساحة ملايين العرب بل الأغلبية الساحقة من الشعب العربى من ذنب عدم تملك ناصية لغة الضاد بكل تعقيداتها.

ومن منطلق معرفتى بمستوى التعليم فى فرنسا وغيرها من الدول الغربية، أستطيع أن أجزم بأن المستوى اللغوى لخريجى الجامعات المصرية من غير المتخصصين يوازى مستوى تلميذ فى بداية المرحلة الإعدادية هناك فى لغته الأم.

فهل يعكس هذا نبوغ تلاميذ العالم الغربى وتخلف طلاب العلم عندنا ؟ بالتأكيد لا .. فإن المستوى الذهنى متقارب بين الاثنين.. إنما المعضلة تكمن فى اللغة العربية التى ترقى تعقيداتها إلى مرتبة اللوغاريتمات المنغلقة على عقول غير المتخصصين.

وفى فصول هذا الكتاب سنناقش بهدوء الأهمية الحيوية للغة فى حياتنا وهل هناك شئ اسمه لغة عالمية. كما سنناقش لماذا يتعذب ملايين التلاميذ والطلاب من أجل تعلم اللغة العربية بدلا من أن يركزوا طاقاتهم فى تحصيل العلوم من خلال أداة لغوية سهلة طيبة كما هو الحال بالنسبة لطلاب غالبية دول العالم الأخرى.

فعلينا ، بعيدا عن النفاق ، أن نعترف بأن طلبة المدارس يكرهون حصص اللغة العربية وينعون همها أكثر من أى مادة تعليمية أخرى. فإلى متى نجعل أطفالنا وشبابنا يتجرعون عذاب القواعد المعقدة التى عفا عليها الزمن ولم تعد تواكب العصر ؟

وتتعدى القضية تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات حيث يكاد لا يوجد شخص فى العالم العربى لا يخطئ فى اللغة. وحتى الذين يتباكون على اللغة ويتهمون على أخطاء غيرهم غير قادرين على القراءة والكتابة دون خطأ باستثناء بضع مئات معدودة من المتخصصين فى العالم العربى كله.

وهذه اللغة العظيمة التي نزل بها إعجاز القرآن الكريم، والتي فتحت للعرب آفاقا رحبة للتطور الفكري والإبداع الفني أصبحت، مع مرور القرون، قيда يكبل العقل العربي ويفل طاقاتها الخلافة. فاللغة تحولت إلى إसार يخنق أفكارنا ويلجمها. وهي تسهم للأسف في حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التي يفتحها العلم الحديث ووسائل المعيشة المواكبة للتطور العلمى. وباختصار فإن اللغة أصبحت سجنا يُحبس العقل العربى بين جدرانها الحديدية بإرادته المستكينة.

فالعربية هي اللغة الوحيدة في العالم اليوم التي لم تتغير قواعدها الأساسية منذ ١٥٠٠ سنة كاملة. قد يرى البعض في ذلك رسوخا واستمرارية ودليلا على رصانة اللغة. لكنى أرى فيه جمودا وتحجرا ينعكس سلبا على العقل العربى. فاللغة كما قلنا كائن حي، يولد وينمو ويتطور ويشب وينضج ثم يشيخ، وكثيرا ما يموت. ودورنا هو إعادة الشباب إلى لفتنا وإجراء عمليات تجميل لإزالة التجاعيد التي تراكمت بعد قرون من الممارسة الناجحة. فالجمود في اللغة يؤدي حتما إلى جمود في العقل. والتحجر في اللغة يؤدي إلى تيبس الأذهان.

وفي الماضي كان النوابع قادرين على معرفة اللغة والتراث والحديث والتعمق في الوقت ذاته في علوم مثل الفلك والكيمياء والرياضيات. أما اليوم، ومع الاتساع اللامتناهى في المعارف، فإن الإنسان العربى يجد نفسه أمام خيار صعب: إما أن يكرس حياته لدراسة اللغة والتراث، أو أن يتخصص في فرع من فروع العلم والمعرفة الحديثة.

وفى الحالة الأولى، فإنه سيكون ضليعا ولا شك فى العربية لكنه سيكون شبه منقطع عن العالم ومحبوسا فى دائرة مغلقة تجعله خارج حياة القرن الحادى والعشرين. وفى الحالة الثانية سيكون مواكبا للتطور الحضارى الهائل فى العالم أجمع، لكن معرفته بالعربية ستكون محدودة وسطحية إلى حد بعيد.

وسنعقد فى فصول هذا الكتاب مقارنة سريعة بين العربية واللغات الحية الأخرى لتبين صدق هذه الحقيقة. وسنشعر من هذه المقارنة بين العربية بقواعدها الجامدة مع اللغات الأخرى التى تستخدمها الشعوب المتقدمة أننا كمن يمتطى جمالا بالطريق السريع، فى الوقت الذى يركب فيه غيرنا سيارات تنقلهم بأقصى سرعة إلى ساحات التقدم. فتحصيل العلم من أجل تطبيقه للناس الإنسان أصبح الشغل الشاغل للمجتمعات المتحضرة. لم يعد هناك فراغ يجعل الناس تستلذ صعوبة القواعد وتعقيد الكلمات كما هو الحال عندنا، حيث ينتشى البعض وتتفخ أوداجهم سرورا عند يصححون خطأ لغويا، ويتلون قاعدة متقمرة، لاقيمة لها إلا أنها من وضع النحاة الأقدمين.

هذا فى حين أن المجتمعات المتقدمة فى صراع مع الزمن وليس على استعداد لإضاعة وقتها الثمين فى الكلمات الرنانة الفارغة من أى محتوى وفى القواعد المعقدة والجناس والطباق والمقابلة والاستعارة المكنية وغير المكنية، وما شابه ذلك من محسنات بدعية حتى الأدب العالمى أصبح يعتمد على المعنى والمضمون وليس على زخرف اللغة والتلاعب بالألفاظ.

وسوف نتعرض أيضا بمعيار العقل إلى قضية حساسة هي علاقة اللغة بالدين. وهل العربية لغة «توقيفية» أي هابطة من السماء، كما يريد البعض، أم لغة «اصطناعية»، أي من صنع الإنسان، كما يريد المنطق ؟ مع أن الكل يعلم أن العربية نشأت واستوت كمنظومة لغوية متكاملة في العصر الجاهلي. فهي إذن تنتمي - كلفة - إلى العصر الجاهلي، لكن الله سبحانه وتعالى تخيرها لتزيل رسالته إلى البشر، فسمّا بها إلى أعلى مراتب الإعجاز.

\* \* \*

وفي كتاب «الداء العربي» حاولت أن أضع أصابعي على بعض أسباب تخلف العالم العربي عن ركب الحضارة العالمى. وكنت أنوى أن أخصص فصلا عن اللغة بعنوان «رسالة إلى حراس الضاد» أشدد فيه على ضرورة الثورة على قواعد اللغة التى لم تعد تواكب زماننا. فإنا اعتبر أن اللغة هي إحدى عناصر تخلف العالم العربي وأن تحجر البعض في تناول قضية اللغة من أسباب عملية إجهاض النهضة الذى قمت بتحليله في كتاب «الداء العربي». لكننى وجدت أن قضية اللغة أكبر من أن تعرض في فصل داخل كتاب. فهي في حاجة إلى مؤلف مستقل يحلل الظاهرة ويحيط بها من جوانبها المختلفة.

ويأتى هذا الكتاب تكملة لما سعت إليه في «الداء العربي». فقد أن الأوان أن ندرك أن اللغة أصبحت إحدى العقبات في سبيل

انطلاق العقل العربى. وآن الأوان أن نقول هذا الكلام بشجاعة فر  
وجه من يريدون الحجر على عقولنا وترويع كل من ينادى بالتحديث.

\* \* \*

وبعيد عن ذهنى تماما هجر اللغة العربية لحساب اللهجات  
العامية أو استخدام الحروف اللاتينية وما شابه ذلك من  
اقتراحات طرحها بعض الذين أدركوا نكوص الفصحى عن التعبير  
عن واقعنا الحالى. فالذين يدعون إلى وأد العربية لا يدركون  
تبعات مطلبهم. فاللغة العربية أنتجت بعضا من أهم الإبداعات  
الإنسانية ومن يدرس تاريخ الآداب العالمية لا يسعه إلا أن يتوقف  
بإجلال أمام أشعار المتنبى وأبى العلاء وأبى نواس ونثر أبى حيان  
التوحيدى، كما لا يملك إلا أن ينحنى تحية لأدب نجيب محفوظ.

وترك اللغة العربية معناه ببساطة محو كل هذا التراث العظيم  
من الذاكرة الجماعية للشعب العربى. هذا عن التاريخ. أما عن  
الحاضر فإن معناه تفتيت الأمة العربية وشرذمتها إلى كيانات  
مستقلة وربما متنافرة. فإذا نظرنا إلى الوطن العربى اليوم نجد أن  
أقطاره تختلف فى السياسة وتتنافر فى الاقتصاد وتتنافس فى  
التجارة. الجانب الوحيد الذى يجمع بين العرب هو الثقافة واللغة  
فإذا سحبنا البساط من تحت هذا الجانب فإننا نهدم صرحا يُظَلُّ  
كافة العرب وكأننا نهدم المعبد فوق رؤوسنا.

ولهذه الحيشيات فإنه لا يمكننى أن أقف مع الداعين إلى هدم العربية من أساسها. لكننى أطالب بإعادة النظر فى القواعد الأساسية للفتنا لتصبح أداة فعالة لتفجير طاقات العقل العربى المحتبسة فى هيكل اللغة المقدس.

وأنا على ثقة من أننى أترجم المشاعر الدفينة فى نفوس ملايين العرب وأنا أهتف قائلاً: يسقط سيبويه.

\* \* \*

## برج بابل

يحطىء كثيرا من يتصور أن قضية اللغة من القضايا الهامشية أو الثانوية التي يواجهها المجتمع، أو حتى أنها مجرد قضية هامة من بين قضاياها المتعددة. وقد يرى البعض أن الأجدى التعرض للقضايا الاقتصادية أو الاجتماعية أو غير ذلك من الموضوعات الحيوية التي تمس الحياة اليومية للإنسان العربي. أما قضية اللغة فهي ترف ينبغي أن نتركه للمتخصصين وعلماء الفقه اللغوي.

فالحقيقة أن اللغة قضية حيوية ستسهم بشكل حاسم في تحديد الهوية العربية وتطور ثقافتنا في القرن الحالى. كما أنها ملك لكل من يستخدمها وليست حكرا على علماء اللغة. وسنحاول في هذا الفصل إثبات أهمية اللغة في حياة الإنسان منذ بدء الخليقة وكيف كانت عنصرا مؤثرا في تطور المجتمعات وتشكيل الوجدان الجماعى لها.

وهناك بين اللغة والفكر علاقة جدلية. فاللغة وعاء الفكر، والفكر مضمون اللغة. والإنسان لا يستطيع أن يفكر بطريقة مجردة



وإنما يفكر من خلال كلمات وتركيبات لغوية تتفاعل فى ثايات عقله. فنقل الأفكار يكون دائما باللغة سواء عن طريق الكلام أو الكتابة.

أما وسائل التعبير الأخرى مثل الرسم والموسيقى مثلا فتقتل شحنات من الأحاسيس والمشاعر، لكن كل هذه الوسائل التى لا تعتمد على اللغة عاجزة عن إيصال الفكر من إنسان إلى آخر. وقد ظل الإنسان لمئات الآلاف من السنين أقرب إلى الحيوان نظرا لعدم تبلور أداة للتفاهم بينه وبين الآخرين من بنى جنسه.

وعلماء الأنثروبولوجى يؤكدون العلاقة المتوازية بين تطور اللغة وتقدم المجتمعات الإنسانية. فكلما استطاع الناس أن يتفاهموا فيما بينهم، كلما نجحوا فى تطوير حياتهم ومستوى معيشتهم.

والعكس صحيح. فقد ثبت دائما أن التخلف الفكرى والإفلاس الحضارى يؤديان بالضرورة إلى اضمحلال اللغة. والتخلف اللغوى يعميق العقل عن التطور الحضارى ويؤدى إلى تحجيم الإدراك والخيال اللازمين للتقدم. فالفقر اللغوى كثيرا ما يعكس فقرا معنويا وحتى ماديا للمجتمع.

والتعريف الشائع للإنسان هو أنه حيوان ناطق. فالفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان هو النطق أى اللغة. الحيوان لا يستطيع التعبير عن نفسه ولا يستطيع أن يورث خبرته وتجاربته لمن بعده. على عكس الإنسان الذى ينقل كل معارفه وعلمه عن طريق اللغة.

وهناك نظريات عديدة فى أصل اللغات ونشأتها وتطورها عند الإنسان البدائى الذى ظل ملايين السنين حتى توصل إلى لغة راقية

تعبّر عن مشاعره ومتطلباته. لكن علماء الانثروبولوجى يرجحون أن الإنسان الأول كان يدرك الأشياء فى البداية كصور مجسدة فى عقله، فيفكر مثلاً فى أسد أو نهر فيتمثل كل منهما أمامه. وظل كذلك حتى بدأ يصدر أصواتاً للتعبير عن تلك الأشياء التى يريد استحضارها ونقلها لغيره. ومن هنا بدأت اللغة.

وظل التفكير الإنسانى قاصراً وأقرب إلى تفكير الحيوان طالما لم تتكون لغة التماور. فالتفكير فى الأشياء المادية المحسوسة والأحاسيس الفريزية مثل الخوف والجوع يساعد على خلق لغة بدائية تتكون من أصوات ثم كلمات مقتضبة للتعبير عنها. لكن التطور الذى عرفه الإنسان بعد المراحل الأولى من وجوده على الأرض كان يستلزم وسيلة أكثر تعسداً للتعبير والتفاهم. وبدأت اللغات تنمو وتتطور وتجسد أفكاراً مجردة. وبالتوازي مع تطور وسيلة التعبير عما يجيش فى صدره من أحاسيس ومشاعر انفتحت أمام الإنسان آفاق التقدم والحضارة.

\* \* \*

وكانت الكتابة من أهم الثورات الثقافية التى عرفها تاريخ البشرية، إن لم تكن أهمها على الإطلاق. بل إن التاريخ نفسه يبدأ بالكتابة أى بتثبيت اللغة الشفهية وتخطيها لحاجز الزمن. والخط الفاصل بين ما يسمى بعصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ هو اختراع الكتابة. وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول الحضارة

التي كان لها فضل اختراع الكتابة أهي المصرية أم السومرية ؟ إلا أن الإجماع على أن بدء التدوين كان لحظة تاريخية فاصلة. جعلت الإنسانية تقفز قفزة عملاقة إلى الأمام.

قبل ذلك كانت المعلومات والخبرات تنتقل كلها شفاهة من جيل إلى جيل. وهذا التوارث السمعي من شأنه أن يطمس الثقافة ولا يسمح بوجود دين أو معرفة حقيقية. فقوام الأديان السماوية كلها هي الكتب التي تحمل رسالة كل دين وليس المنقول عن الأنبياء، أنفسهم بالسمع جيلا بعد جيل. فالتوراة والإنجيل والقرآن هي الأسس التي شيدت عليها الديانات السماوية الثلاث. وكان القرن الكريم هو الكتاب الوحيد المحفوظ عند العرب بعد انتقال سيده محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وإذا سألنا أنفسنا ما الذي يربطنا بماضينا وبتراثنا الثقافي ؟ فإن الأجابة هي ببساطة : اللغة. فاللغة هي الوسيلة الأساسية لمعرفة كل ما حدث قبل وجود جيلنا في الدنيا. فمعلوماتنا عن الماضي نستقيها من الكتب التي تركها السلف كما أن التراث والأدب والفكر مرهونون كلهم باللغة التي دونوا بها وتقرأها اليوم كما قرأنا من عاشوا قبلنا.

هناك طبعاً الآثار الباقية مثل الأهرام وأبى الهول والمساجد والقصور والقطع الأثرية مثل التماثيل والأواني والحلى وغير ذلك. لكن كل مخلفات الماضي البعيد والقريب تفقد معناها في غياب النهج اللغوي. فالآثار الفرعونية القديمة مثلاً ظلت أحجاراً صماء لم تعرف

قيمتها ومعناها أجيال متعاقبة من المصريين لقرون طويلة بسبب عدم فهم اللغة الهيروغليفية المنقوشة عليها. وكان العرب يفتون فتاوى غريبة حول بناء الأهرام. فصاحب المعجم القاموس يقول مثلاً: «إن الهرمين بناءان أزليان بمصر، بناهما إدريس عليه السلام، لحفظ العلوم فيهما من الطوفان، أو بناء سنان بن الشلث».

ووصل الأمر إلى أن الخليفة المأمون عندما قدم إلى مصر عام ٨٢٢ م أمر بتفكيك أحجار الأهرام بهدف استخدامها في بناء منشآت جديدة. ولولا ثقل الأحجار وأحجامها الضخمة، التي حانت دون تنفيذ أوامر المأمون، لفقدت مصر والعالم أجمع إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة. بل إن هرم خوفو هو الوحيد الباقي إلى يومنا هذا من عجائب الدنيا السبع القديمة.

أما الست الآخر وهي فنار الإسكندرية، وحدائق بابل المعلقة، وعملاق رودس، وتمثال زيوس، ومعبد أرتميس (حامية الأرض عند الرومان) وضريح هاليكارناس، قد تهدمت جميعاً بفعل الزلازل والحرائق والعوامل الطبيعية الأخرى.

فالهرم الأكبر إذا هو البناء الوحيد من عجائب الدنيا السبع الأصلية الذي تحدى الزمن وانتصر على كل عوامل الهدم، مما جعل الشاعر يقول عنه:

خليلى ما نحت السماء بنية يشابه بنياها بنا هرمى مصر  
ساء بحاف الدهر منه وكل ما على الأرض يخشى دائماً سطوة الدهر

وهذا الصرح العظيم الذى يعتبر اليوم أهم بناء على وجه الأرض ويوضع على رأس قائمة التراث العالمى الواجب حمايته والذى تحتضنه منظمة اليونسكو الدولية كاد يزول بسبب الجهل باللغة.

وعندما نجح شامبليون فى فك طلاسم الهيروغليفية فى بداية القرن التاسع عشر تكشفت أسرار الحضارة المصرية القديمة التى يعتبرها العالم أجمع اليوم أم الحضارات الإنسانية كلها. وقد كانت اللغة هى المفتاح الوحيد لفهم قيمة الأحجار الصماء التى تركها أجدادنا فى عصور الفراعنة.

ولو افترضنا جدلاً أننا فقدنا فجأة معرفتنا بالعربية فإننا لن نستطيع قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وسننقطع بذلك عن ديننا. كما سنفقد أى اتصال بتراثنا الأدبى والثقافى العظيم. فما الذى يربطنا بعظماء مثل المتنبى أو البحترى أو حتى أحمد شوقى وطه حسين ؟ إنها اللغة أيضاً.

ولو لم نكن نعرف العربية لما استطعنا أن نفهم ما أبدعه هؤلاء ولصرنا عاجزين عن الارتباط بماضيها. والانقطاع عن الماضى هو أكبر كارثة يمكن أن تواجه شعباً من الشعوب. والوصل المطلوب بالتراث اليوم يمر بتطوير سريع وجرىء للغة وليس بالتمسك بها كما هى بقاء قد يودى إلى أخطر النتائج على العربية.

\*\*\*

وبالإضافة إلى دورها الأساسى كوسيلة وحيدة لحفظ التراث وانتقاله عبر الأجيال، فإن اللغة هى أحد أهم العناصر المكونة

للحضارة وللهوية الإنسانية في كل مكان. وأول اتصال بين إنسان وآخر يتم عن طريق اللغة. ويحتاج الزعماء ورجال السياسة والاقتصاد إلى مترجمين للتفاهم. ولولا هؤلاء المترجمون الذين يجسدون أكثر من لغة لكان التفاهم صعبا للغاية إن لم يكن مستحيلا. فاللغة هي الأداة الأساسية للتفاهم. لكنها أيضا الوعاء الذي يتبلور فيه فكر الإنسان ورؤيته للحياة. وبالتالي فإن اللغة هي المنصر المشكل للثقافة والفكر والفلسفة والآداب.

وبالإضافة إلى هذا فإن اللغة هي أداة التفاهم الأساسية بين أبناء البشرية. وقد أثبت القرآن الكريم الأهمية الحيوية للغة حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم. ٤) أي أنه لو تحدث الرسل بلغة مختلفة أو غريبة عن قومهم ما أوضحوا لهم وما بينوا لهم ما كلفوا بنقله من رسائل سماوية. ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى عندما يقول: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْيُنِ \* فَفَرَأَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء. ١٩٨ و ١٩٩).

ثم هذه الآية التي توضح هذا المعنى بجلاء: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ (فصلت. ٤٤). ومعنى هذا بوضوح أن اختيار الله سبحانه وتعالى للعربية جاء بناء على لغة القوم الذي أنزل عليهم الكتاب.

والواقعة الوحيدة المذكورة في القرآن عن تحدث الله سبحانه وتعالى إلى بشر كان بطلها النبي موسى. ويقول كتاب الله: ﴿قُلْنَا

أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى \* إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلُغْ ثَغْلِيكَ إِنَّكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ  
طَوَى \* وَأَنَا احْتَرِثْتُ فَاسْتَمِعْ مَا يُوحَىٰ لَهُ (طه ١١.١٢.١٣) وباقى الآيات  
معروفة فى سورة طه. ولنا أن نتساءل : بأى لغة تحدث الله إلى  
عبدِه موسى ؟

فموسى تربى فى مصر وعاش بها وكان يتحدث اللغة المصرية  
القديمة. أما العربية فلم يكن لها وجود على الأرض آنذاك. فموسى  
عاش قبل خاتم الأنبياء بسبعة عشر قرناً. ويجمع علماء اللغة على  
أن لغة الضاد لم تتخذ ثوبها الذى نزل به القرآن إلا قبل قرن أو  
قرن ونصف على الأكثر قبل الدعوة.

ومن المسلم به أن موسى فهم كل كلمة مما قاله ربه. فقد سألَه :  
﴿وَمَا تَنْتَ بِمِثْلِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه ١٧) فأجابه النبى كما هو وارد فى  
سورة طه. ثم ألقى الله بأوامر محددة حين قال : ﴿الْقَهَا يَا مُوسَى﴾  
(طه ١٩) ثم : ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه ٢١)  
ثم : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾  
(طه ٢٢) ثم : ﴿إِذْ هَمَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه ٢٤). وقد أجاب  
موسى على خائفه ونفذ كل هذه الأوامر على الفور أى أنه فهم  
تماماً اللغة التى نودى بها. بل إنه أجاب على الله بالكلام فقال من  
بين ما قال : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ  
فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى﴾ (طه ١٨). كما توجه إلى ربه بالرجاء فى الآيات  
من ٢٥ إلى ٢٥ .

وإذا عملنا عقلنا لوجدنا أن هناك احتمالين من الصعب أن يكون لهما ثالث وهما:

إما أن يكون الحوار مع موسى باللفة الوحيدة التي يشهها وهي المصرية القديمة.

أو أن يكون الله قد أوحى إليه المعاني دون اللجوء إلى لغة معينة. لكن المنطق يقول أن موسى حتى في الحالة الثانية قد تحدث بلغته الأم وهي المصرية القديمة.

وفي كل الأحوال فإن العبرة أن الله تحدث إلى موسى بأسلوب يفهمه ويدرك معانيه ولو تحدث إليه بالعربية مثلاً لما فهم موسى وما أستطاع أن يطيع الأوامر.



وقد لعبت اللغة منذ فجر التاريخ دوراً محورياً في نسج الضمير الجماعي للمجتمعات. لكنها ظلت أداة استخدام داخلية أي بين أبناء المجتمع الواحد الذين يتحدثون نفس اللغة. فكانت أهمية اللغة كبيرة في تماسك المجتمعات وربطها بهيكل بنيوي واحد في أسلوب التفكير. ولم تكن المجتمعات في السابق متداخلة ولم يكن لسفر والتنقل متاحين بسهولة كما هو الحال اليوم. فظلت لغة كل مجتمع هي التي تتسيد وحدها الفضاء الجغرافي الذي يضم كل أفراد. وكان أبناء المجتمع الواحد لا يعرفون إلا لغة واحدة للتفاهم ولا يدور بخلد هم أن يتعلموا لغة أخرى إلا باستثناءات نادرة.



أما اليوم فقد تغيرت الصورة جذريا وأصبحت اللغة أداة تفاهم بين المجتمعات المختلفة. ولم يعد من الممكن في بداية القرن الحادى والعشرين على أية دولة فى العالم أن تعيش يوما واحدا دون الاتصال بدولة أخرى تتحدث لغة مختلفة عنها.

وكان من نتائج ذلك أن أصبحت مهنة الترجمة والتي كانت موجودة منذ قديم الزمان من أهم وأخطر المهن فى العالم. وقد أصبحت أيضا من أكثر المهن المجزية من الناحية المادية، حيث يتقاضى المترجم الفورى فى المؤتمرات الدولية مكافأة يومية مرتفعة نثرًا لأنه من أهم مقومات نجاح الاجتماعات، ولولاه لما حدث تفاهم بين الحاضرين.

وقد أدرك الإنسان منذ أقدم العصور أن اللغة هى أداة توحيد وانسجام ووافق. وتروى التوراة قصة تؤكد أهمية اللغة فى ترابط المجتمعات، فتقول إن الناس كانوا فى بدايات البشرية قوما واحدا يتكلمون لغة واحدة. ثم ظهر فى بابل ملك طاغية يدعى نمرود تصور أنه قادر على مناطقة الآلهة.

وشرع هذا الملك فى بناء برج شاهق يرتفع به إلى عنان السماء حتى يصل إلى الآلهة ويتحداهم. فقد كان هذا الملك يعتبر نفسه أقوى من الآلهة التى فى السماء وأراد أن يثبت ذلك لقومه فخما كان من الخسائق إلا أن جعل العاملين فى بناء البرج يتكلمون لغات مختلفة. وعلى الفور اختفى التفاهم فيما بينهم ودبت الخلافات وأخذوا يتشاجرون بدلا من العمل فى بناء البرج ولم يستطيعوا

بالتالى إكمال البناء وأخفق نمرود فى وضع مشروعه المجنون موضع التنفيذ.

وخلاصة هذه القصة هى أن اللغة هى أساس التفاهم بين الناس وأن وجود لغات مختلفة جعل الناس عاجزين عن السعى فى مشروع مشترك وهو بناء برج بابل.

وبرغم هذه القصة الواردة فى التوراة فمن المؤكد أن وجود لغات مختلفة هى نعمة من نعم الله. فكل لغة تعبر عن ثقافة بذاتها ورؤية للحياة تختلف عن غيرها. كما أنها تعكس منظومة فكرية تثرى حضارات الإنسانية. وهناك آلاف اللغات التى اندثرت تماما ولم يعد علماء اللغات يعرفون عنها شيئا. ولا يستطيع علماء اللغة إحصاء عدد هذه اللغات لكنها اختفت عادة لحساب لغات أخرى أكثر تعبيرا عن احتياجات المجتمع. فكان اللغات القديمة مثل أسماك فى الماء يبتلع الكبير الصغير.

حتى فى الجزيرة العربية خلال الجاهلية كانت هناك عشرات اللهجات المختلفة إلى أن جاء القرآن فانزوت كلها ولم تبق إلا لغة قريش أداة للتفاهم بين العرب.

وهناك لغات اندثرت لكنها لا زالت معروفة للمتخصصين ولعل أشهرها اللاتينية التى تعد اللغة الأم لعدة لغات حية من أهم لغات عالم اليوم مثل الفرنسية والإيطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية. كما أن هناك اللغة اليونانية القديمة التى أبدع بها

هوميروس وأفلاطون وأرسطو وسوفوكليس وغيرهم ممن غيروا  
نظرة الإنسان للحياة في القرون السابقة على ظهور المسيح.

وكان لكل حضارة من تلك الحضارات واللغة المعبرة عنها دور  
حيوى فى تقدم الإنسانية ورفقيها ووصولها إلى ما هى عليه الآن  
يفعل تراكم المعارف. ولولا اللغة لما كان ذلك متاحا.

\* \* \*

ووعيا منه بخطورة اللغة فى العلاقات بين الشعوب طرأت على  
ذهن طبيب بولندى فى نهاية القرن التاسع عشر فكرة عبقرية. فقد  
وضع لغة جديدة تماما هى مزيج من أهم لغات العالم أطلق عليها  
اسم "إسبيرانتو" ونشرها عام ١٨٨٧ باسم اللغة العالمية.

لكن الفكرة سرعان ما أهملت وسقطت فى طى النسيان. فلم  
يكن وراءها ثقافة ولا دولة قوية تحميها.

وعندما أفاق الناس من صدمة الحرب العالمية الثانية المروعة  
رأى البعض ضرورة البحث عن وسائل لنزع فتيل المواجهة بين أبناء  
البشرية وأرادوا مد جسور التفاهم بين الناس. فعادت الروح بعض  
الشيء إلى الإسبيرانتو على أساس أنه إذا تحدثت كل شعوب العالم  
لغة واحدة فسوف يؤدى ذلك إلى إذابة العوائق النفسية ونزعات  
الشر الكامنة فى نفس الإنسان تجاه من يعتبرهم غرباء عنه.

لكن هذه المحاولة باءت بالفشل كما أن فكرة إقامة حكومة  
واحدة للعالم هى حلم من الأحلام الوردية التى لا يمكن تحقيقتها  
فى المستقبل المنظور. فحتى دول الاتحاد الأوروبى لا زالت عاجزة

حتى الآن برغم تقدمها فى الوحدة فيما بينها عن إنشاء نوع من أنواع الحكم الفوقى تخضع له كل الدول الأعضاء. وكان الرئيس الفرنسى الأسبق فاليرى جيسكار ديستان يحلم بأن يكون أول رئيس لولايات المتحدة الأوروبية. لكن هناك أفكار مثل الإسبرانتو تسبق عصرها وقد تتحقق فى المستقبل البعيد عندما تتغير ظروف المجتمعات البشرية.

\*\*\*

وإذا أخذنا مثالا آخر من القرن العشرين يعكس إدراك الإنسان لأهمية اللغة نجد أن الطاغية النازى أدولف هتلر ( ١٨٨٩ - ١٩٤٥ ) كان يحلم بتوحيد كل الناطقين بالألمانية فى أوروبا. وقد قام بغزو النمسا وأهلها يتحدثون الألمانية. ثم غزا المناطق البولندية الناطقة بالألمانية وبعد ذلك منطقة السوديت جنوب تشيكوسلوفاكيا السابقة. وسكانها أيضا كانوا من الناطقين بالألمانية.

ومن يتابع تحرك الجيش النازى فى نهاية الثلاثينات من القرن العشرين يتضح له مخطط هتلر الذى كان يقوم فى أساسه على اللغة التى كان يعتبرها أحد المكونات الأساسية للجس. فخرطة التحرك كانت مطابقة لخريطة المجتمعات التى تتخذ من الألمانية لغة للتفاهم.

وكان لهتلر بطبيعة الحال أطماع توسعية واستعمارية أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. لكن فكرته الرئيسية كانت قيام إمبراطورية تضم كل أنحاء العصر الالمانى الناطقين بالألمانية. وقد

فرض على الحلفاء فى اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨ ضم منطقة  
السوديت بجنوب تشيكوسلوفاكيا السابقة على أساس أن أهلها  
يتحدثون الألمانية.

مثال آخر من العالم العربى: فإذا قمنا بتحليل حقبة الاستعمار  
من منظور لغوى يتضح لنا أن اللغة لعبت دورا هاما لا زال العرب  
واقعين تحت تأثيره إلى بداية القرن الواحد والعشرين.

وقد تقاسم الهيمنة على العالم العربى منذ النصف الثانى من  
القرن التاسع عشر دولتان أوروبيتان لكل منهما مفهومها الخاص  
عن رسالتها الثقافية واللغوية. فانجلترا كانت تهدف من فرض  
سيطرتها على المستعمرات الاستفادة المادية والانتفاع بخيرات  
الأراضى التى احتلتها إلى أقصى حد ممكن. ولم تسع بريطانيا  
لفرض لغتها أو ثقافتها على الدول التى استعمرتها فى العالم  
العربى وعلى رأسها مصر.

أما فرنسا فكان لها هاجس آخر بالإضافة إلى الاستفادة المادية.  
فقد كانت حريصة على نشر ثقافتها ولغتها فى الدول العربية  
والأفريقية وغيرها التى وقعت تحت براثنها. وكانت السلطة  
الفرنسية تفرض لغتها فى المدارس وتحارب العربية أو تسمى  
لتقليصها بقدر المستطاع، وجعلها لهجة للتفاهم البدائى بين أبناء  
الشعوب الخاضعة لها. وكان أبناء الجزائر وتونس والمغرب يتعلمون  
فى المدارس أن أجدادهم هم الفالايون، وهؤلاء بطبيعة الحال هم  
أجداد الفرنسيين وحدهم.

فرنسا إذا لم تكتف بالسيطرة على الأرض، لكنها أرادت السيطرة على العقل. واكتشفت أن الهيمنة العقلية تمر من خلال الحالة اللغوية. ومن الواضح ، برغم سوء نواياها ، أنها كانت على صواب.

وكانت نتيجة السياسة اللغوية التي انتهجتها فرنسا أن شعوب المغرب العربي لا زالت إلى الآن مرتبطة ارتباطاً ثقافياً وثيقاً بفرنسا ويقترب منها تفكيرها من المنهاج الفرنسى أكثر منه إلى العربى. صحيح أن أبناء الجيل الحالى يبذلون جهوداً جبارة للتخلص من سيطرة التأثير الفرنسى والتوصل إلى صيغة يلتحمون بها بثقافتهم العربية الأصيلة لكن الأثر الثقافى الذى تركته سنوات الاستعمار لا زال شديد الوطأة على العقل المغاربى.

ومع ذلك فإنه من المؤكد أن تأثر الشعوب المغاربية بالفرنسية قد أفادها كثيراً بعد مرحلة الاستعمار وانعكس فى الانعاشة التى تعيشها هذه الدول منذ نهايات القرن العشرين.

والغريب أن المفهومين الفرنسى والانجليزى لقضية الثقافة واللغة لا زالا ينعكسان إلى يومنا هذا على موقف الدولتين من الجاليات الأجنبية المقيمة فيهما. فانجلترا تتعامل مع الجاليات الأجنبية بها وكأنها وحدات مستقلة بثقافتها ولغاتها طالما أنها تصب فى نفع الاقتصاد الانجليزى ولا تعكر صفو الأمن العام. فالهنود مثلاً لهم أحياءهم التى يعيشون فيها بلندن، وكأنهم فى بومباى أو نيودلهى.

أما فرنسا فتفرض هذا المنطق بشدة وتسعى إلى إيجاد مجتمع متجانس في الثقافة واللغة والمزاج وتظهر بعين القلق إلى أى محاولة للتمييز الثقافي أو اللغوي من قبل أى جالية أجنبية.

وكان هذا المفهوم هو السبب في انفجار قضية الحجاب في المدارس الفرنسية منذ الثمانينات من القرن العشرين.

\*\*\*

ولعل كل هذه المواقف تصب في قالب واحد وهو تأكيد الأهمية الحيوية للغة، ووعي المجتمعات المتقدمة بالدور الخطير الذي يمكن أن تقوم به سلبا أو إيجابا.

ويتزايد إحساس الإنسان بأهمية اللغة عندما يزور بلادا غريبة لا يجيد لفتها فيحس وكأنه تائه وضائع تماما ويشعر بالمجز عن الاتصال بالمحيطين به وقد يتعرض لمواقف صعبة أو لأخطار بسبب جهله باللغة.

ومع تسليم الجميع بأهمية اللغة على مستوى الإنسانية، فإن المجتمعات العربية تضع لغة الضاد في مكانة خاصة لا تطالها أى لغة أخرى بل لا تقترب منها. فاللغة منذ العصر الجاهلى تلعب دورا محورا في حياة العرب، كما كانت تسهم في تحديد العلاقات بين الناس وفي تحديد طبقات المجتمع جنبا إلى جنب مع شرف النسب ووفاء المال. ولن أطيل في وصف الأهمية التي كان يحظى بها الشعراء أو الخطباء في المرتبة الثانية. ولم يكن الأمراء يستكفون رواية الشعر على عكس كل المجتمعات الأخرى التي كانت ترى الفن والأدب هواية

تحوز إلا للعامّة. هـامرو أنيس وأبو فراس الحمداني والمعتد بن عباد كانوا من أمراء قومهم على سبيل المثال لا انحصار.

بل إن هناك خليفة كان يقرض الشعر بنفسه وهو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثاني خلفاء بني أمية. وينسب إليه بيت من أشهر الأبيات التي يستدل بها على البلاغة العربية يقول فيه:

وأصطرت لؤلؤاً صر مرجس وسفند ورداً وعصت على العناب بالمرد

ومهما كانت أهمية اللغة بالنسبة لكافة شعوب العالم منذ قديم الأزل، فلا يوجد شعب يعشق لغته ويجلها مثل الشعب العربي. فالعربي ينتشى لحسن اللغة بقدر ما يظرب لنغمات الموسيقى. واللغة تحكم سيطرتها السحرية على العقل العربي بصورة غير مسبوقة وغير موجودة في كافة ثقافات العالم.

ويلخص فيليب حنّي اشتتان العرب بلغتهم في كتاب «تاريخ العرب» (دار الكشاف للنشر والطباعة، بيروت ١٩٦٥) حيث يقول:

«وقل أن تجد بين أمم الأرض شعباً كالعرب في شدة إعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الأنيق الذي يلقي في مجالس المخاطبة. ولهم شغف وهيام كبيران بجمال اللغة سواء رأوها مكتوبة أو سمعوها بأذانهم حتى تمتعت اللغة العربية بما لم تتمتع به لغة أخرى من الاستيلاء على عقول الناس والسيطرة على أفئدتهم. بالرغم من أن هذا الأدب يرد أحياناً في لغة منمقة معقدة يفهمون بعضها ويفلق عليهم البعض الآخر...»



## هل هناك لغة عالمية؟

لؤلؤ حقب التاريخ المتعاقبة كانت الأهمية التي تحظى بها اللغة انعكاساً لقوة الدولة أو الحضارة التي تستخدمها. حتى في الجزيرة العربية خلال العصر الجاهلي كانت لغة قريش هي أهم اللغات نظرًا لأهمية مكة كمركز للتجارة والحجيج وموقعها من طرق التبادل التجاري. وظلت كذلك حتى جاء القرآن الكريم ليؤكد تفوق لغة قريش ويحيل إلى نفي النسيان كل اللغات الأخرى التي كانت مسددة بين القبائل في الجزيرة.

والسؤال الذي يثير بعض الجدل في مجال اللغات اليوم هو : هل هناك لغة عالمية ؟ أي هل هناك لغة يمكن للإنسان استخدامها في أي مكان في العالم ويكون مفهومًا من الجميع ؟ في بداية التسعينات كتب رئيس تحرير صحيفة الوول ستريت جورنال الأمريكية مقالاً يقول فيه حرفياً : «اللغة العالمية هي الانجليزية».

ولاشك أن هناك مغالاة في مقولة رئيس تحرير هذه الصحيفة برغم الأهمية الكبرى التي تحظى بها اللغة الانجليزية أو بمعنى

أدق اللغة الأمريكية. فالمعنى الدقيق لكلمة لغة عالمية أنها لغة يفهمها كل الناس في العالم. وهذا بعيد جدا عن الانجليزية وعن أى لغة أخرى في أى عصر من العصور. وعدد المتحدثين بالانجليزية اليوم كلفة أولى لا يتعدى ٢٤١ مليوناً كما يتضح من الجدول التالي:

عدد الناطقين بأهم لغات العالم كلفة أم

اللغة	العدد بالمليون
الصينية (مندارين)	٨٧٤
هندي	٣٦٦
إنجليزي	٣٤١
إسباني	٣٢٢
عربي	٢٤٠
بنغالي	٢٠٧
برتغالي	١٧٦
روسي	١٦٧

أما عدد الذين يجيدون الإنجليزية في العالم فلا يمكن معرفته بدقة. لكن التقدير الجزافي المتداول هو مليار إنسان يعيشون في قارات العالم الخمس.

وفي التاريخ الإنساني كانت هناك في كل العصور لغة تتفوق على اللغات الأخرى في الأهمية لأنها لغة الحضارة المسيطرة في العالم. كان هذا هو الحال بالنسبة للغة اليونانية قبل المسيح بعدة قرون ثم اللاتينية عندما كانت روما القوة العظمى التي تبسط نفوذها على

معظم بقاع العالم المعروف آنذاك ومنها مصر. وكان العالم يعيش ما يسمى «باكس رومانا» أى السلام الذى تفرضه روما على الجميع.

وكانت كل المعاملات تتم فى تلك العصور باليونانية ثم باللاتينية. وقد ظهرت آنذاك كلمة «بربرى» وكانت تعنى ببساطة كل من ليس يونانى أو رومانى ومن لا يتكلم اليونانية القديمة أو اللاتينية. كما كان العرب يطلقون لفظة «أعجمى» على كل من لا يجيد العربية، أى كان أصله.

وعندما بزغ نور الحضارة الإسلامية أصبحت العربية هى لغة العلم والمعرفة والتفوق فى كل المجالات وكان علماء العالم يضطرون إلى الإلمام بالعربية ليكونوا على معرفة بآخر ما وصل إليه العلم لحديث فى ذلك العصر. نخلوا لأن كل الاكتشافات والبحوث العلمية القيمة كانت تكتب بالعربية. وتماما كما أن علماء العالم اليوم الذين يجهلون الانجليزية يصبحون متخلفين عن ركب العلم والمعرفة فإن علماء الماضى كانوا يضطرون اضطرارا لتعلم العربية. فكل الاختراعات والأدوات العلمية التى كانت تسهل حياة الإنسان كانت تنطلق من العالم العربى الإسلامى وتصاغ بلغة الضاد.

وبعد عصر النهضة كانت الفرنسية هى لغة المعاهدات ولغة الدبلوماسية خاصة فى عصر لويس الرابع عشر (١٦٣٨ . ١٧١٥) الذى كان يلقب بالملك الشمس. وقد اتخذ هذا الملك من قصر فرساي مقرا له فأصبحت فرساي عاصمة العالم آنذاك ، وصارت

الفرنسية لغة تفاهم رئيسية وخاصة فى بلاط ملوك أوروبا وفى المحافل الدبلوماسية حتى بداية القرن العشرين.

\*\*\*

اللغة المسيطرة إذا ليست ظاهرة جديدة لم يعرفها العالم إلا مع الانجليزية الأمريكية. لكن المؤكد أن وسائل الإعلام الحديثة وانتشار التلفزيون والإنترنت وسهولة الانتقال منحت الانجليزية فرصة لم تكن متاحة لأى لغة أخرى سيطرت حضارتها على العالم فى الماضى. فقد كان العارفون باللغة المسيطرة من خارج أصحابها فى الماضى هم شريحة ضئيلة جدا من المتعلمين والمفكرين. أما اليوم فإن معرفة الانجليزية أصبحت شائعة فى الطبقات العليا لكل المجتمعات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأصبح أى مثقف فى أى ركن من أركان العالم مطالب بالإلمام بهذه اللغة وإلا فإن ثقافته ستكون محلية ومحدودة.

وإذا كانت الانجليزية هى اللغة المهيمنة على عالمنا اليوم فإن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى انجلترا برغم كونها أم هذه اللغة وموطنها الأصلى. إنما الفضل يعود للولايات المتحدة الأمريكية التى اتخذت الإنجليزية لغة رسمية منذ إنشائها فى عام ١٧٧٦ .

ولأن الولايات المتحدة أصبحت القوة العظمى الأولى فى عالم اليوم وصارت رائدة فى مجالات العلم والفن والإعلام والصناعة فإن لغتها تصدرت لغات العالم وأصبحت اللغة المتداولة بين الصفوة وفى المعاملات الدولية وفى الندوات السياسية والعلمية والثقافية الدولية. كذلك فإن أهم الأبحاث الطبية والعلمية يتم تداولها

الإنجليزية وتطبع النشرات والمجلات المتخصصة في كل المجالات العلمية بالإنجليزية الأمريكية دون غيرها.

وكما نجح الأمريكيون في فرض الدولار كعملة التداول الأساسية في العالم نجحوا أيضا في جعل لغتهم هي لغة التفاهم الرئيسية في كل المجالات. فالعقود الكبرى والاتفاقات الدولية والكتابات العلمية صارت تكتب بالانجليزية. وقد أصبح من الصعب الآن على أي إنسان يسعى للانفتاح على عالم المعرفة في أي مجال من مجالات الحياة أن يجهل الإنجليزية جهلا تاما.

لكن ما لا يدركه الكثيرون هو أن السطوة اللغوية لا تعنى بالضرورة الانتشار. فاللغة الانجليزية برغم مكانتها ليست أكثر لغات العالم تداولاً كما هو واضح من لجدول:

### نسبة الناطقين بأهم لغات العالم كلفة أم (النسبة بالمائة)

اللسنة	العام				
	١٩٥٨	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٢	٢٠٠٠
لصينية (مندارين)	١٥,٦	١٦,٦	١٥,٨	١٥,٢	١٤,٥
لهندية	٥,٢	٥,٣	٥,٣	٦,٤	٦,١
لإنجليزية	٩,٨	٩,١	٨,٧	٧,٦	٥,٧
لإسبانية	٥,٠	٥,٢	٥,٥	٦,١	٥,٤
لعربية	٢,٧	٢,٩	٣,٣	٣,٥	٤,٠
لروسية	٥,٥	٥,٦	٦,٠	٤,٩	٢,٨

١. لا توجد احصائيات موثوق بها عن اللغات منذ عام ٢٠٠٠.

٢. يرجع الانخفاض الحاد في عدد الناطقين بالروسية في عام ٢٠٠٠ إلى أن العديد من

دول الاتحاد السوفيتي السابق لم تعد تعتبر الروسية لغتها الأم.

ويتضح من الجدول أن اللغة الإنجليزية هي الثالثة في العالم من حيث عدد المتحدثين بها بعد لغة الماندارين أكثر لغات الصين انتشاراً، واللغة الهندية.

والأهم من ذلك هو أن عدد الناطقين بالإنجليزية كلفة أم قد تضاعف في السنوات السابقة نسبة إلى سكان الكرة الأرضية لحساب لغات أخرى من بينها العربية. لكن المهم أن الانجليزية أصبحت لغة الرجال والنساء المؤثرين في العالم. فرجال السياسة والدبلوماسية ورجال المال والاقتصاد والعلوم يتفاهمون فيما بينهم بالانجليزية. وباختصار فإنه إذا أراد أى شخصين مختلفين في اللغة والثقافة التفاهم فيما بينهما فإنهما غالباً ما يلجآن إلى الانجليزية كلفة مشتركة بينهما.

وكان من الطبيعي أن يأتى رد الفعل الرافض لهيمنة الإنجليزية من أصحاب اللغة الثانية في العالم من حيث الأهمية، وهي الفرنسية. وكانت الفرنسية حتى منتصف القرن العشرين منافساً عتيداً للإنجليزية ثم تراجعت بصورة واضحة خاصة بعد العدوان الثلاثى على مصر عندما أصبحت إنجلترا وفرنسا دولتين من الدرجة الثانية.

وبهدف مواجهة احتكار الأنجلو - أمريكية أنشأت فرنسا تجمعا أطلقت عليه اسم «الفرانكوفونية» أى الناطقين بالفرنسية. والهدف الرسمي لهذا التجمع هو الدفاع عن التنوع الثقافى ورفض سيطرة لغة واحدة وقوة واحدة على العالم. وقد انضمت لهذا التجمع سبع

دول عربية من بينها مصر. ولأن الناطقين بالفرنسية في مصر عددهم محدود للغاية، فمن الواضح أن قرار انضمامها كان وراءه هدف سياسي.. لكنه يقوم على البعد اللغوي.

ومن يراقب تطور اللغات في العالم يتضح له أن الهيكل العام لاستخدام اللغات الحية لم يتغير كثيرا خلال النصف الثاني من القرن العشرين حتى اليوم كما يتضح من الجدول السابق.

هناك لغات انخفضت نسبة مستخدميها قليلا بفعل النمو الديمغرافي لدول الجنوب على حساب دول الشمال الغنية. فـلغات مثل الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية عانت من هبوط نسبي في نسبة الناطقين بها.

وفي مدينة دافوس السويسرية يجتمع سنويا في الشتاء نحو ألف من أهم متخذي القرار في العالم وخاصة في المجال الاقتصادي. ويصل الوزن المالي لمرتادي منتدى دافوس إلى رقم فئكي يزيد على مئات المليارات من الدولارات. وخلال أسبوع تدور ندوات وحلقات بحث بين هؤلاء وبعض أبرز رجال السياسة الدوليين حول قضايا العالم الأساسية.

ولأن المشاركين في المنتدى ينتمون لعشرات الدول الناطقة بلغات مختلفة فإن السؤال هو : كيف يتفاهم كل هؤلاء ؟ خاصة وأنه من مبادئ دافوس إلا توجد أية ترجمة في اللقاءات والندوات.

والإجابة ببساطة هي أن اللغة الوحيدة المستخدمة في الندوات واللقاءات هي: الانجليزية. وعلى الرغم من محاولات الناطقين

باللغة الفرنسية فى تنويع لغات المنتدى وإدخال الفرنسية ولو كلفة ثانوية للتعامل به، إلا أن الانجليزية لا زالت تسيطر بلا منازع على المشاركين فى منتدى دافوس. وينطبق ذلك على غالبية الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية الدولية فى العالم.

ومن المشروع أن نتساءل : لماذا نجحت الانجليزية فى أن تهيمن تماما وتصبح لغة التعامل الدولى فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ؟

لا نشك فى أن السبب الأول كما قلنا هو أن الولايات المتحدة صارت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى القوة الأولى فى العالم. بل إنها أصبحت القوة المتحكمة فى مصائر الشعوب. ولا تكتفى أمريكا ببسط سيطرتها سياسيا واقتصاديا فقط ولكنها صارت أكبر مصدر للثقافة بالمعنى الواسع للكلمة. فهى أكبر مصدر للأفلام والأغاني والبرامج التلفزيونية والسى دى والإنترنت.

وقبلها، كانت الامبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس تسعى لنشر ثقافتها ولغتها. لكن العصر اختلف حيث أصبحت أدوات الاتصال والإعلام والمعرفة غولا يسمح اليوم لأمريكا بتحقيق ما فشلت فيه بريطانيا فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين. ويصل إجمالى الناتج القومى لمجموع الدول الناطقة بالإنجليزية اليوم إلى ٣١ ٪ من الناتج القومى العالمى. أما الدول الناطقة بالعربية فلا تمثل سوى ٦,٦ ٪ من إجمالى الناتج القومى العالمى.



لكن القوة ليست السبب الأوحـد فى السيطرة اللغوية. فمن أهم ما يساعد على هيمنة الإنجليزية اليوم السهولة الشديدة لهذه اللغة خاصة بعد أن عبرت المحيط الأطلنطى من موطنها الأصلي بريطانيا إلى قارة أمريكا الشمالية. فقد اجتهد الأمريكيون لجعلوا من لغة شيكسبير لغة مبسطة ومباشرة أصبحت أداة طيعة يستطـيع أى طفل أن يتعلم قواعدها ويمتلك ناصيتها دون أن يعانى الأمريـين كما هو الحال بالنسبة لأطفال الوطن العربى.

وقد طبقوا على اللغة ما نادى به الدكتور طه حسين للعربية فى بداية القرن الماضى. فهم يجتهدون لكتابتها حسبما تنطق وليس حسب القواعد الكتابية القديمة المبنية على أصل تكوين الكلمات. وكم لاقى طه حسين من هجوم وسخرية بسبب اقتراحه الذى تضيقه اليوم القوى العظمى اللغوية الأولى فى العالم.

وسهولة اللغة واستجابتها لاحتياجات الإنسان فى التعبير عن نفسه جعلت الكثيرين يتقبلون على تعلم الإنجليزية. غمى لا تستغرق وقتا وجهدا كلفات أخرى مهمة مثل الفرنسية والإسبانية بالإضافة إلى تفوقها فى الأهمية العملية على كل لغات العالم اليوم.

\* \* \*

وقد حاولت شعوب أخرى لها حضارات قديمة وراسخة أن تقوم هى الأخرى بعملية موازنة لغوية. حاول الفرنسيون والألمان والإيطاليون. لكنهم لم ينجحوا نجاح الأمريكيين فى تحقيق ذلك على الرغم من جهودهم الضخمة لتطويع لغاتهم لمتطلبات العصر الحديث.

ففى الفرنسية مثلاً أكثر من عشر تصريفات مختلفة للأفعال تعبر بدقة شديدة عن زمن الفعل. فيمكن بالفرنسية مثلاً أن تتحدث عن حدثين متتاليين وقعا فى الماضى فتعرف من مجرد تصريف الفعل أيهما السابق على الآخر. وأذكر كم عانيت فى فصول الدراسة لحفظ هذه التصريفات المعقدة نسبياً والتي كانت مستخدمة وشائعة حتى منتصف القرن العشرين.

أما اليوم فقد صارت اللغة الفرنسية أكثر سهولة واختفت غالبية التصريفات المعقدة ولم يعد هناك إلا بضع تصريفات تعبر عن الأزمنة المطلوبة من ماض ومضارع ومستقبل.

ومع كل هذه الجهود لا زالت الفرنسية لغة صعبة مقارنة بالأمريكية. فقد نجح الأمريكيون فى غربة اللغة الإنجليزية وإزالة شوائبها وقاموا بعملية تشبه ما يفعله الجزار الماهر عندما «يشفى» اللحوم فيستبعد ما لا يفيد ولا يحتفظ إلا بالضرورى والنافع.

والمهم أن التطوير الضخم الذى أدخله الأمريكيون على الإنجليزية لا يودى إطلاقاً إلى عجزها عن التعبير الأدبى البليغ. فقد أبدع بها كتاب أمريكيون عظام مثل همنجواى وجون شتاينبك وأرثر ميلر. وقد ارتفع هؤلاء باللغة وبالمعانى إلى مستويات راقية تتناسب مع العصر وتتوافق مع مزاج الإنسان المعاصر، مما يدل على أنه لا توجد أية علاقة بين البلاغة وتعقيد اللغة وكثرة مترادفاتهما.

وقد وضعت الجمعية الأمريكية لأساتذة اللغة الفرنسية في  
نشرة بعنوان "أهم اللغات" (نشرة رقم ٢ لعام ١٩٩٩) ستة معايير  
لقياس أهمية كل لغة وهي الآتية :

( أ ) عدد المتحدثين بها كلفة أم .

( ب ) عدد المتحدثين كلفة ثانوية .

( جـ ) عدد الدول وعدد سكانها الذين يتحدثون اللغة .

( د ) عدد المجالات الأساسية (العلوم، الدبلوماسية وغيرها) التي  
تستخدم فيها اللغة على الصعيد الدولي .

( هـ ) القوة الاقتصادية للدول التي تستخدم هذه اللغة .

( و ) الأشعاع الثقافي والأدبي للدول التي تستخدم هذه اللغة .

ومن هذا المنطلق فقد وضعوا لكل لغة عددا من النقاط تعكس  
أهميتها وجاء ترتيب أهمية اللغات كالاتى :

اللغة	عدد النقاط
١ . الإنجليزية	٣٧
٢ . الفرنسية	٢٣
٣ . الإسبانية	٢٠
٤ . الروسية	١٦
٥ . العربية	١٤
٦ . الصينية	١٣
٧ . الألمانية	١٢
٨ . اليابانية	١٠
٩ . البرتغالية	١٠
١٠ . الهندو أوروبية	٩

وإذا أردنا أن نعرف مكانة العربية بين لغات العالم من خلال بعض المعايير الهامة يتضح لنا ما يلي: أنها الخامسة في العالم من حيث عدد الناطقين بها، والثامنة من حيث إجمالي الناتج القومي. لكن هناك مجالات تتراجع فيها لغة الضاد بشكل لافت للنظر. ففي مجال النشر يتم سنويا طباعة ما يقرب من ٧٠٠ ألف كتاب. وتقف العربية في موقع لا تحسد عليه حيث أنها رقم ٢٢ من بين لغات العالم في هذا المجال.

أما في شبكة الإنترنت التي تعد من المعايير الهامة للتقدم فالإنجليزية هي الوحش المسيطر بنسبة تزيد على ٨٤ ٪ من إجمالي ما يتم تداوله على شاشات الكومبيوتر في العالم. وهناك فجوة ضخمة بينها وبين اللغة الثانية وهي الألمانية التي لا يزيد حجمها عن ٤,٥ ٪ تليها اليابانية (١,٢) ثم الفرنسية (٨,١). أما العربية فلم أجد لها أثرا بين الدول الخمس عشرة الأولى الأكثر استخداما على الإنترنت.

وإذا كان تعبير لغة عالمية لا ينطبق الآن بدقة على أي من لغات العالم في بداية القرن الحادي والعشرين، فإن أقرب لغة إلى هذا المعنى هي بالتأكيد الإنجلو - الأمريكية. فقد نجحت هذه اللغة في أن تكون قاسما مشتركا أعظم بين كل الذين يتطلب عملهم الاتصال بآخرين من دول أو ثقافات أخرى. وبالتالي فالإنجلو - الأمريكية هي المرشحة لتحقيق حلم الإسبرانتو أي أن تكون لغة تفاهم عالمية.

ما نريد أن نستخلصه من الحديث عن لغة عالمية هو أن سيطرة الإنجلو - أمريكية لا تأتي فقط من كونها لغة الدولة المهيمنة في عالم ما بعد الحرب الباردة، وإنما أيضا لأنها لغة سهلة، طيعة، يتطلب تعلم مبادئها جهدا أقل من أى لغة أخرى في العالم، وبالتالي فإن من يتقنها يصل إلى المعرفة من أقصر الطرق .. على عكس العربية.

\* \* \*

## رسالة إلى حراس التصاد

أعرف مسبقاً أن الآراء الواردة في هذا الفصل والفصول القادمة ستجلب على انتقادات غنيمة ممن يعتبرون أنفسهم حراس اللغة وتراث السلف في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية. لكنني أعتبر أن أكبر خطر ستواجهه اللغة العربية في السنوات القادمة يتمثل تحديداً في أنصار التجمد ورفض التجديد. وفي رأي المتواضع أن الذين يتصورون أنفسهم حماة اللغة العربية هم الذين يعرضونها لأكبر الأخطار برفض التطوير بل الثورة التي تستلزمها اللغة في بداية القرن الحادي والعشرين لتظل لسان العرب المشترك في الألفية الثالثة.

وأنا مقتنع أن ما أقترحه في هذا الكتاب هو . في خطوته تعريضة . الوسيلة الوحيدة لإنقاذ العربية وخروجها من المأزق الخطير الذي تعاني منه اليوم أكثر من أي يوم مضى للأسباب التي أوضحتها في المقدمة..

فلفتنا في حاجة الى انتفاضة تحديثية عاجلة.. وإلا فإنها قد تتعرض لخطر التقوقع وربما الاختفاء، لا قدر الله، كلفة حية يستخدمها الناس في التعامل فيما بينهم. وقد تتحول إلى لفة لا يعرفها سوى بعض العلماء والمتخصصين، ويتعلمها الناس لقراءة القرآن الكريم فقط.

فمن يرقب تطور اللفة في البلدان العربية يستشعر أن لفتنا الأصلية مهددة بالضياح لحساب اللهجات التي يستخدمها الناس في الأقطار العربية المختلفة للتعبير عن أنفسهم في حياتهم اليومية. وهناك نفور واضح ومتزايد لدى الشباب من تعلم قواعد اللفة المعقدة والمفردات والتراكيب التي عفى عليها الزمن ولم تعد تفي باحتياجات الإنسان الحديث في التعبير عن نفسه.

وكلما اجتاحت مظاهر التطور وسرعة إيقاع الحياة مجتمعات العالم العربي كلما ازداد الشعور العربي العام وخاصة لدى الشباب بأن لفة الضاد لا تسعف في هذا الزمان المتسارع الإيقاع، الذي يصل فيه الناس إلى المعلومات وإلى المعاني في أسرع وقت ممكن وأكثر الطرق مباشرة.

وقد سبقني بعض كبار المفكرين وعمالقة الثقافة منذ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٢) في محاولة وضع أصابعهم على أسباب تخلف العالم العربي عن ركب الحضارة وخاصة عن العالم الغربي. لكن أحدا من هؤلاء العمالقة لم يتطرق إلى قضية اللفة بطريقة مباشرة أو اعتبرها عائقا لتقدم العالم العربي وازدهاره.

وأنا مقتنع أن اللغة التي أبدعت أعظم وأجمل وأرق ما كتب في تاريخ البشرية صارت اليوم مثل عجوز محنط في حاجة إلى عمليات عاجلة للعودة إلى الصبا والتخلص من آثار الزمن. فالعربية كما قلت في المقدمة، هي اللغة الحية الوحيدة في العالم التي لم يطرأ على قواعدها الأساسية أى تعديل منذ أكثر من خمسة عشر قرناً كاملة.

أما باقى اللغات الحية فهي إما حديثة نسبياً أو قديمة، ولكن طرأت عليها تغييرات أساسية مواكبة العصر.

وإذا أخذنا اللغات الأوروبية نجد أنها ارتبطت بصورة أو بأخرى بعصر النهضة. وقد تبلورت كلها في شكلها الحالى في حدود القرنين الخامس والسادس عشر. وقد لعب اختراع الطباعة على يد الألماني جوتنبرج في منتصف القرن الخامس عشر دوراً حاسماً في تطوير اللغات الأوروبية.

فالفرنسية مثلاً لا يتجاوز عمرها خمسة قرون، وكانت فرنسا مقسمة لغوياً في العصور الوسطى إلى شمال يتحدث الناس فيه لغة تسمى «أويل» وجنوب يستخدم لغة «أوك». ويذكرنا هذا باللغة «مدناية» في شمال الجزيرة العربية ولغة حمير في جنوبها. ولم تصبح الفرنسية لغة رسمية إلا في عام ١٥٢٩ بموجب مرسوم ملكي أصدره ملك فرنسا فرنسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) وعرف باسم مرسوم فيليرس. كوتره.



أما الإنجليزية فإن دائرة المعارف البريطانية تشير إلى أن المؤرخين يجمعون في غالبيتهم على أنها بدأت نحو عام ١٥٠٠ في صورتها التي نعرفها حاليًا. وكما أن مونتيني (١٥٢٣ - ١٥٩٢) كان أول من أبدع بالفرنسية، فإن الرائد الأول للإنجليزية هو تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠). لكن حتى مع حداثة هاتين اللغتين بالنسبة للعربية، فقد طرأت عليهما تغييرات أساسية. ولم تكن نتيجة التطور الطبيعي فحسب، وإنما بفعل تعديلات في القواعد والتراكيب. فتحن إذا رجعنا للغة مونتيني، أول من كتب بالفرنسية الحديثة لوجدنا فروقا جوهرية مع الفرنسية التي يستخدمها الكتاب اليوم.

كذلك لو قارنا بين الانجليزية التي كان يكتب بها شيكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٥) مسرحياته الخالدة، واللغة الانجليزية المعروفة اليوم لوجدنا فروقا لا يمكن أن تخفى على أحد. وكما في الفرنسية فإن التغيير ليس في تطور الأسلوب وإدخال كلمات جديدة فحسب، وإنما في القواعد الأساسية التي تضبط النحو والصرف في اللغتين.

إذا فحتى اللغات الحديثة نسبيا تطورت من أجل مجازاة العصر ولكي تعكس بأمانة احتياجات الإنسان العصري التي تختلف جذريا عن احتياجات سابقه الذين عاشوا من مئات السنين.

أما اللغات القديمة مثل العبرية واليونانية والصينية فإنها تختلف اليوم اختلافا جذريا عن اللغات الأصلية التي كانت مستخدمة منذ أكثر من ألفي عام. والجدير بالملاحظة أن عمليات

التطوير التي عرفتھا الصينية كانت تتم بطريقة تلقائية مرة كل نحو خمسمائة عام.

والخلاصة هي أن العربية هي اللغة الوحيدة على وجه الأرض التي لم تتطور قواعدها ونحوها وصرفها منذ ألف وخمسمائة عام. وهي اللغة الوحيدة في العالم التي أصر الناصقون بها على تحنيطها وبذلوا كل الجهود للحفاظ على «نقائھا».

\* \* \*

ولأن اللغة هي انعكاس لاحتياجات المجتمع في التفاهم والتعامل فلا يعقل أن تكون احتياجات المجتمع العربي في القرن الواحد والعشرين مماثلة لاحتياجات سكان البادية في القرن الخامس الميلادي قبل ظهور الإسلام. واللغة هي المحدد الرئيسي لأسلوب التفكير ورؤية الدنيا. فهل يعقل أننا نفكر اليوم مثل البدو في القرن الخامس الميلادي بالجزيرة العربية وأن رؤيتنا للدنيا لا تختلف عن رؤيتهم ؟

ولو كان ذلك صحيحا لكان دليلا على تخلفنا الشديد. فسنة الحياة أن يتطور الفكر ويرتقى إلى أفاق أرحب بالتوازي مع التقدم المادي للمجتمع. ولا يمكن لإنسان القرن الواحد والعشرين أن يرى الدنيا كبدوى في صحراء القرن الخامس الهجري الذي لم يكن يعرف عن لعالم شيئا وكانت كل آفاقه هي كثران الصحراء المحيطة به.

ولأن اللغة هي مرآة أمينة لتطور العقل، فإن عدم تطور قواعد لغة العربية منذ ١٥٠٠ عام يحمل دلالات خطيرة أترك للقارئ أن يستنتجها بنفسه.

صحيح أنه علينا أن نفخر بأن أجدادنا وضعوا لغة جميلة كانت قادرة على تحدى الزمن وعلى التعبير عن أدق المعانى وأجمل المشاعر، إلا أنه لا يمكن أن تستمر العربية فى غياب تطوير جذرى فى قواعدها دون مواجهة خطر فقدان هويتها.

وكان أعظم ما نزل بالعربية هو القرآن الكريم. وهذا يجعلنا أكثر حرصا على الحفاظ على لغتنا الجميلة وأكثر تمسكا بها. والحفاظ عليها يستوجب العمل على تطويرها دون إبطاء حتى تواكب متطلبات العصر فى الصياغة والمفردات وقواعد النحو والصرف.

وتدل كل المؤشرات على أن الشباب حتى من خريجى أفضل الجامعات العربية أصبحوا يكتبون بلغة ركيكة ويقعون فى أخطاء لغوية فادحة. حتى خريجى كليات من المفترض أن يستخدموا العربية لممارسة عملهم مثل الحقوق والآداب قد وصلوا فى الآونة الأخيرة إلى مستوى لا يصدق من التدنى فى الإلمام باللغة وقواعدها.

وقد دأب الكتاب والمثقفون على السخرية من هؤلاء الشباب وصب لعناتهم على هذا الزمان. واكتفوا بذلك. فهم يعتبرون أن كل من لا يجيد قواعد العربية ويخطئ فى النحو جاهل ولا علاقة له بالعلم. والكل مجمع على أن السبب الوحيد فى هذه المحنة هى استهتار هؤلاء الشباب ورفضهم لبذل أى مجهود من أجل تعلم قواعد اللغة العربية ونحوها.

وهم يؤكدون أن الشباب فاشل في كل العلوم التي يتلقاها في المدرسة والجامعة وليس في اللغة العربية وحدها، وهذا دليل على عدم جديتهم. لكن هذا الرأي يناقضه الواقع الذي يدل على أن التقصور في معرفة العربية لا يقع على الشباب وحدهم كما لا يقع على أبناء هذا الجيل وحدهم ولكنه قديم قدم اللغة نفسها.

والشكوى من الضعف في اللغة كان موجودا في كل حقبة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كما سنكتشف من خلال فصول هذا الكتاب. وقد لخص شاعر النيل حافظ إبراهيم هذا الهاجس في قصيدة شهيرة نشرها عام ١٩٠٢ بعنوان «اللغة العربية تتعى حطبها بين أهلها»، يقول في مطلعها:

دعت لنفس قاتهمت حصان  
وناديت قومى فاحتسبت دياتى  
وهو هنا يتحدث بلسان اللغة العربية فيقول أنها اتهمت نفسها  
ولا بأنها السبب في ضعفها الظاهر على ألسنة الناس، ثم حاولت  
أن تنادى الناطقين بالعربية للنجدة فخذلوها فاحتسبت نفسها عند  
الله.

ولا نقاش حول أن الناطقين بالعربية من الشباب وغير الشباب  
ممن يخطئون في قواعد اللغة ومفرداتها يتحملون مسئولية كبيرة  
في ضعف مستواهم اللغوى. لكن هل فكر أحد في طرح السؤال  
التالى: هل الخطأ في هؤلاء الشباب وفى الناطقين بلغة الضاد  
عامة في هذا الزمان وحدهم ؟ أم أن الذنب يقع كذلك على تحجر  
لغة وعدم ملائمتها لمتطلبات العصر ؟ وهل الحل هو فرض اللغة

التقليدية كما هي دون تطوير على أساس أنها لغة التراث والأدب والثقافة العربية وأن أي مساس بقواعدها هو عدوان على الدين والمقدسات ؟ أم أنه آن الأوان أن نفكر في كيفية تطوير اللغة لتلائم مقتضيات عصر جديد وفكر جديد لا بد من التعبير عنهما بأسلوب جديد ؟

أعلم أن هذه الأسئلة تعتبر خروجاً قد لا يقبله البعض عن أساليب التفكير التقليدية، واقتراباً من مناطق حساسة يقف على أبوابها الموصدة فريق من العلماء المؤمنين بضرورة الحفاظ على التراث اللغوي كما هو دون أدنى تحريف. وهؤلاء العلماء يعتبرون أي كلام عن تحديث اللغة بمثابة خوض في المحظور وخروج عن إطار الدين الحنيف. وهم يتفنون أحياناً في تعقيد اللغة وتعويرها حتى تغلق أكثر فأكثر على العامة فيصبحوا هم فئة متميزة ترتفع فوق باقي الناس بحذقها اللغوي.

وظاهرة رفض المساس باللغة العربية هي جزء من ظاهرة أعم أصبحت مهيمنة على المجتمعات العربية.

فقد استشرى منذ الثلث الأخير من القرن العشرين تيار جارف يعتبر كل جديد بدعة مكروهة ويرى في أي فكر حر متطور محاولة شيطانية لتقليد الغرب، ونبذاً للدين والثقافة العربية الأصيلة. ويعتبر أصحاب هذا التيار أن واجبهم المقدس هو الوقوف بالمرصاد في وجه كل من تسول له نفسه الخروج عن قوالب التفكير الجامدة ومحاولة تطوير الموروث والسعي وراء التجديد.

وهذا الاتجاه المحافظ الرافض من حيث المبدأ لأى تجديد موجود منذ فجر التاريخ فى كل المجتمعات الإنسانية. وقد أثبت فى كتاب «الداء العربى» كم عانى الرسول الكريم ﷺ نفسه من انصار الجمود الذين وصفهم القرآن قائلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (نعمان ٢٢).

\*\*\*

وهناك معارك كثيرة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أخرى اصطدم فيها الفكر الجديد بحراس الماضى.

ومن أشهر المعارك التى وقعت فى تاريخ الأدب العالمى ، معركة هرنانى . وهذه التسمية معروفة لكل من يهتم بالأدب العالمى والفرنسى خاصة. وقد نشأت عندما كتب شاعر فرنسا الأشهر فكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) مسرحية باسم هرنانى عام ١٨٣٠ حطم فيها كل القوالب الجامدة التى التزم بها المسرح الفرنسى منذ عصره الذهبى فى القرن السابع عشر. وضرب هوجو عرض الحائط بواحد من أسس المسرح الكلاسيكى الأوروبى وهى قاعدة وحدة المكان والزمان والموضوع. كما خرج عن الوزن الشعرى المعروف باسم «ألكساندران» أى «السكندرى» والذى يتكون من إثنتى عشر وحدة صوتية.

وهاج أنصار القديم. واعتبروا أن هوجو مارق ومحطم للتقاليد التى صنعت مجد فرنسا. وأغرب اتهام وجه إليه آنذاك هو الخروج

على تعاليم الديانة المسيحية والكنيسة الكاثوليكية، حامية التقاليد الراسخة التي استقر عليها المجتمع. وفي يوم افتتاح المسرحية نشبت معركة عنيفة وصلت إلى حد التشابك بالأيدي بين أنصار القديم والجديد.

لكن التطور الذي أحدثه هوجو هو الذي انتصر في النهاية وتحرر المسرح الأوروبي والعالمي من القيود التي ربما كانت تناسب زمننا من الأزمان لكنها تتصادم مع طبيعة التطور التي استنها الله في الأرض.

وقد أثبتت التجربة أن النزعة إلى التوقع والخوف من العالم الخارجي تظهر وتستشري بالتوازي مع الانحسار الحضاري. فالحضارات القوية الواثقة من نفسها تكون عادة على استعداد لتقبل الفكر الوافد من الخارج ومناقشته والتعرف عليه ونقل ما قد يفيد منه.

ومع ذلك فالميل إلى رفض كل جديد نزعة كامنة في كل المجتمعات البشرية على مر التاريخ بصورة أو بأخرى. ومن الممكن إعادة قراءة التاريخ الفكري للإنسانية من منظور الصراع الدائم بين حراس القديم ودعاة التحديث. ففي كل مرة طرأت فيها على مجتمع من المجتمعات تغيرات موضوعية، تستوجب تأقلم الفكر والثقافة والقوانين من أجل مطابقة الواقع المستحدث، نجد دائما من يهب للتمسك بالموثوث دون تطوير، ويقاوم بكل شراسة كي تظل المرجعية الوحيدة هي مرجعية السلف.

وكم استخدم حراس القديم الأديان فى كل زمان لوقف أى تطور وحجب أى رؤى وآراء جديدة. وما يحدث اليوم فى العالم العربى هو تكرار لما وقع منذ العصر الجاهلى، مروراً بكل عصور الدول الأموية والعباسية والعثمانية وغيرها وحتى العصر الحديث.

\* \* \*

وإذا قمنا بالمراجعة التاريخية التى أقترحها فسوف نستخلص منها أن أنصار التجمد ينتصرون دائماً فى المدى الآنى والقريب. لكن كل تجارب الماضى تثبت أن حركة التجديد التى أجهضت تترك دائماً آثاراً إيجابية وتؤدى إلى تقدم ولو محدود إلى الأمام.

والغريب أن من يقرأ تاريخ تطور الفكر الإسلامى يكتشف أن حراس القديم يتشدقون دائماً بنفس الحجج وبذات المنطق، وخلاصته أن التجديد هو قطيعة مع الدين وأصوله وخروج عن تعاليمه، وأن أى فكر خارج عن الإطار الذى وضعه السلف يعد خطراً داهماً على الأمة الإسلامية وعلى ديننا الحنيف. ويقوم فكر هؤلاء على المسلمات التى لا تناقش، والمحرمات التى يحظر الاقتراب منها. ومبدؤهم الراسخ هو التسليم التام برأى السلف وقطع رقبة من يجترئ على طرح أفكار جديدة.

ويستند هؤلاء على فرضيات من الدين ينطلقون فى تفسيرها من أرضية منطقهم الرافض للتقدم، فيستخلصون منها نتائج مخيفة لا علاقة لها بالدين الإسلامى من قريب أو بعيد. ويقف



حراس الماضى ضد كل فكر يعلى قيم الحرية والديمقراطية وتحرير المرأة وسعادة الإنسان المادية على الأرض. مع أن الدين الإسلامى قد أنزل من السماء رحمة للعالمين ومن أجل سعادة بنى آدم.

ولو التزمنا بكلام حراس الماضى، لظلت مجتمعاتنا العربية فى حالة من التخلف المرعب. ولكننا اليوم نحبس النساء فى البيوت ونكتفى بتحفيظ القرآن الكريم بديلا عن المدارس والجامعات المدنية، ولما كان عندنا تليفزيون أو إذاعة أو صحف ولا نعرلنا تماما عن العالم الخارجى. لو استمعنا على مر العصور إلى أنصار القديم لكانت حياتنا اليوم جحيما لا يطاق ويتعارض مع المبادئ الحقيقية لديننا الذى يدعونا إلى طلب العلم ولو فى الصين.

ومن واجبنا اليوم ألا نستمع إلى دعاوى حراس الماضى الباطلة ومحاولتهم تخويف وترويع كل من يطالب بالتغيير والتطور للملاحقة ما وصل إليه العالم المتقدم.

\*\*\*

لكن الحيدة العلمية تدعونا إلى أن نذكر أن أنصار الماضى لعبوا أحيانا دورا إيجابيا فى الحفاظ على التراث وعلى التقاليد الأصيلة للمجتمع فى مواجهة تيارات تسمى إلى التجديد من أجل التغيير ورفضاً لكل ما هو قديم دون تمييز. فكما أن هناك من يخاف أى تعديل لما نشأ عليه وتربى على احترامه وتقديسه فهناك من يدعو طبيعه إلى الثورة على كل شئ، ومحاولة العصف بأى فكر قديم

وبمجموعة القيم والتقاليد المؤسسة للمجتمع الذى يعيش فيه، وذلك كرد فعل على قيود الأفكار المتوارثة من جيل إلى جيل.

ويقول شوقي فى هؤلاء:

لا نخذ حذو عصاة مغنونة يجدون كل قديم شيئا منكرا

وتطور المجتمعات يكون عادة فى التوازن بين التيارين. فالمحافظة على القيم والمثل التى تعد البوتقة التى ينصهر فيها أى مجتمع من المجتمعات هى صمام الأمان الحافظ على استقراره وتماسكه. لكن الاكتفاء بالموروث وحده يجعل المجتمع يتفوق على نفسه ويتحجر ثم يذبل شيئا فشيئا. فكل مجتمع فى حاجة إلى حركات منتظمة من التغيير والتبديل من أجل الاستمرار فى الحياة.

وكلما تأخر المجتمع فى قبول التجديد تزداد الحاجة إلى هزة أقوى للفكر المتوارث. فكل مجتمع فى حاجة ماسة خلال كل حقبة إلى أن يجارى التطور الطبيعى للحياة. لذلك كانت عمليات إعادة النظر فى الموروث لازمة فى كل عصر لاستمرار التطور باتجاه مستقبل.

وفى الماضى كان تطور الحياة الطبيعى بطيئا للغاية. أما اليوم فقد أصبحت ضرورة تطويع المجتمع للتطور أكثر إلحاحا خلال فترات زمنية قصيرة للغاية نظرا للإيقاع المتلاحق للتطور الطبيعى لأى مجتمع من المجتمعات. ولو طبقنا ذلك على اللغة، لأدركنا كم

تأخرنا وكم فوتنا من الفرص لإحداث ثورة لغوية تضع العربية على خريطة أكثر لغات العالم رقياً وتطوراً.

والصراع بين القديم والحديث اتخذ في الماضي أشكالاً عنيفة كما حدث في الثورات التي هزت العالم خلال القرون الماضية. ومن يدرس تاريخ أهم الثورات مثل الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ والثورة السوفيتية في ١٩١٧، يتضح له أنها لم تكن نتيجة مصالح متناقضة وصراعات على الحكم بين الطبقات فقط، بل كانت خلفياتها دائماً الصراع بين القديم والحديث. الصراع بين قيم وأفكار وعلاقات اجتماعية أصبحت بالية لكن أصحاب السلطة يتمسكون بها، ورؤية جديدة للحياة تسعى إلى فرضها شرائح غاضبة من الشعب.

لهذه الأسباب كان ماكيافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) يعطى في كتابه الشهير «الأمير» نصيحة ثمينة حيث يقول للأمير الشاب الذي كان يلقيه دروساً في فن السياسة: «إذا أردت أن تتفادى الثورة.. فاصنعها بنفسك».

ومعنى هذا الكلام أن الثورة على الماضي ضرورة حتمية يمكن أن تتم برضى الحاكم إذا تقبل الواقع الجديد وأجرى التغييرات التي تستلزمها ظروف عصره. أما إذا رفض ذلك وتمسك بالحفاظ على الماضي فإن الثورة على القديم ستتم في كل الأحوال، ولكن بأشكال عنيفة وضد إرادته.

وإذا استخلصنا من حكمة داهية السياسة الشهير ماكيافيللي ما يفيدنا في هذا البحث فإننا نقول: لنقم نحن بثورة في اللغة العربية

اليوم بدلا من أن يفرض علينا الأمر الواقع ونجد لفتنا في خطر داهم بعد بضعة أجيال قادمة. وعلى حد تعبير ما جاء في تراثنا العربي فليتم ذلك «بيدي لا بيد عمرو».

\*\*\*

وفي غياب إجابات صريحة وجريئة عن الأسئلة التي طرحتها حول أسباب ضعف المستوى اللغوي للناطقين بالعربية فإننا سنظل ندور في حلقة مفرغة: شريحة متضائلة من المتخصصين يرفضون التصوير، لكن لهم الصوت العالي والسيطرة على مناهج التعليم وأدوات الثقافة والإعلام، ثم غائبية ساحقة لم تعد قادرة على استيعاب اللغة واستخدامها وتشعر بعقدة بسبب هذا العجز.

وهذه الإغلبية ليست من الشباب فقط ولكنها متمثلة في كافة شرائح المجتمع. كما لا يقتصر الأمر على الطبقات التي لم تتل حظا كافيا من التعليم وإنما تمتد ظاهرة انخفاض المستوى اللغوي إلى طبقة المثقفين والمسؤولين باستثناءات نادرة جدا. فغالبية رؤساء الدول العربية يقومون بخطبهم وأحاديثهم في أخطاء لغوية فادحة وخاصة في التشكيل. ولا تكاد خطبة مسؤول عربي على أي مستوى تخلو من أخطاء ولحن يخرق آذان من يعرف اللغة العربية. أما عن المذكرات الرسمية في الحكومة والدواوين العامة فإنها مكتظة بالأخطاء.

وأعلم أن بعض المسؤولين يأخذون على رؤوسهم أخطاء اللغة ولهجاء التي يقومون فيها. لكن هؤلاء الوزراء والمسؤولين أنفسهم

غير منزهين عن الخطأ فى العربية، ليس تقصيرا منهم، لكن لشبه استحالة عدم الوقوع فى الخطأ عند التحدث أو الكتابة بلغة الضاد.

\* \* \*

ويبدو أن غضب كبار المسئولين من ضعف مستوى العربية عند مرؤوسيهام هو تقليد عربى قديم. فمن الروايات المتدواله فى مجالات باب «التوقيعات» أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور (نحو ٧٠٩ - ٧٧٥) وصله كتاب من عامله على حمص به أخطاء فى اللغة، فكتب إليه : «استبدل بكاتبك، وإلا استبدل بك». أى «إرفد» من يكتب لك، وإلا «رفعتك».

وقد استهلكت الصحافة المصرية أنهارا من الأحبار لفضح الأخطاء اللغوية وخاصة بين أوساط الطلبة الجامعيين. واتضح أن مستوى اللغة وصل إلى درجة مفزعة من الانحطاط. وقد أفردت الصحافة المصرية مئات من الموضوعات تفضح فيها تدنى المستوى اللغوى فى أوساط الطلاب الجامعيين وأعطت أمثلة لأخطاء تقشعر لها الأبدان.

واتضح لى أن التهكم على الأخطاء اللغوية تقليد قديم فى الصحافة المصرية أيضا. ففي مارس ١٩٢٢ نشرت مجلة «روضة البلبابل»، وهى أول مجلة موسيقية فى العالم العربى، وكان رئيس تحريرها لبنانى يدعى إسكندر شرفون، مقالا عن الأخطاء اللغوية التى يقع فيها كبار المطربين آنذاك أشاء غنائهم للقصاصد الشعرية.

وكان كثير من هؤلاء المطربين يحملون لقب «شيخ» مما يعطى انطباعا بإجادتهم اللغة.

وكان أطرف مثال ضربته المجلة عن مطرب لم تذكر اسمه وقع فى خطأ مضحك لخلطه بين العامية والفصحى فى النطق. فكان يفنى قصيدة أبى فراس الشهيرة «أراك عصى الدمع»، وعندما وصل إلى البيت الذى يقول:

معللتى بالوصل والموت دونه إذا مت ظمانا فلا نزل القطر

نطق كلمة ظمانا: «ظمقانا» لاعتقاده أن ظمانا بالنطق العامى، فحولها هو.. إلى عربية فصيحة !!

\* \* \*

وكثيرا ما فوجئت بكبار المثقفين يخطئون أخطاء لا تصدق فى لفتهم الأم التى يكتبون ويبدعون بها. وبعض هؤلاء أو معظمهم يمدون من رموز الأدب والكتابة فى مصر والعالم العربى.

وكنت أسأل نفسى وأنا أستمع إليهم : هل يمكن أن يكون جيش المسئولين والمثقفين والصحفيين والكتاب بهذه الدرجة من الجهل ؟

وعندما كنت أقارن حالنا بالآخرين كنت أجد نفسى مضطرا لأن أعترف بأنه لا يوجد مثقف واحد فى فرنسا أو إنجلترا أو إسبانيا أو حتى البرازيل يخطئ فى لفته الأم بهذه الصورة. فهل كل الشعوب العربية بمثقفيتها ومفكرتها أصبحت معوقة ذهنيا بحيث لا تستطيع تعلم اللغة والإمام بها الإمام سليما ؟

وإذا وسعنا باب المقارنة مع الآخرين نجد أن أية سكرتيرة متواضعة حاصلة على شهادة متوسطة في أية دولة غربية قادرة على أن تكتب بنفسها خطاباً دون أخطاء لغوية. وقد تعاملت خلال عملي في منظمة اليونسكو الدولية مع أكثر من سكرتيرة فرنسية وفوجئت بأنهن تكتبن مذكرات وخطابات رسمية دون أي خطأ. أما في الوطن العربي فإن أعلى القيادات الوظيفية من الحاصلين على أعلى الشهادات الجامعية عاجزون عن صياغة مذكرة أو خطاب خاص بعملهم دون أخطاء لغوية في العربية.

فهل السكرتيرة الفرنسية تمتلك قدرات ذهنية أرقى من المثقفين وأصحاب الشهادات العليا في العالم العربي ؟ بالطبع لا. إذا فالحلل يكمن في الطرف الآخر من المعادلة، وهو اللغة المستخدمة للتعبير عند كل من الطرفين : السكرتيرة الفرنسية والمثقف العربي. فاللغة الفرنسية طيبة وسهلة ومباشرة. كما أن السكرتيرة مثلها مثل كل من يجيد الفرنسية لديها أدوات تسهل مهمتها وتجعلها قادرة على تجنب الخطأ. وعلى رأس هذه الأدوات قاموس اللغة الفرنسية الذي يقوم على ترتيب الحروف الأبجدية بالإضافة إلى ترسنة من القواميس الخاصة بالقواعد وبالمتراقات وغير ذلك من الكتب التي يتعلم أي تلميذ فرنسي كيفية استخدامها في المدرسة.

\* \* \*

وقد يكون أول رد فعل لمن يقرأ هذا الكلام هو الاعتراض بأن العربية قد طرأت عليها تطورات كبيرة بالفعل وأنني أغفلت ذلك

فى تحليلى لاشكالية العربية فى العصر الحديث. لكنه لم يفتنى أن العربية التى نستخدمها اليوم تختلف كثيرا عن اللغة التى كان يستخدمها أجدادنا فى الماضى البعيد وحتى القريب. لا أشك أن العربية قد عرفت تطورا ضخما خلال القرن العشرين. لكن هناك فرقا جوهريا بين التطور والتطوير. فمنذ ظهور الصحافة بصفة خاصة بدأت العربية مرحلة جديدة من التطور الطبيعى المنسجم مع ضرورة الاتصال بالناس وتقديم المعلومات للقارئ بالصورة التى يقدر على استيعابها.

لكن ما أقصده ليس التطور.. وإنما التطوير. وهناك فرق جوهري بين الاثنين. فالأول هو ظاهرة طبيعية لا يستطيع أحد أن يقاومها لأنها سنة من سنن الحياة. لكنها تحدث دون تدبير محكم يضعها فى سياق منهجى. أما التطوير فهو جهد إرادى جماعى للخروج من حالة السكون وذلك من خلال تقنين التطور وإيجاد الآليات اللازمة للوصول به إلى مدام.

ولفتنا الجميلة أصبحت فى حاجة ماسة إلى التطوير الطوعى حتى لا نجد أنفسنا فى خلال عقود قليلة أمام معضلة مخيفة وهى خطر الانقطاع عن ثقافتنا وتراثنا بسبب تعنت بعض العقول المتحجرة الرافضة لكل جديد.

إن اللغة كائن حي يحتاج على الدوام إلى تغذية وعمليات إحلال وتبديل كما يحتاج الإنسان إلى الغذاء وإلى تجديد خلايا جسده.



ومن يطالب بتحنيط اللغة وعدم المساس بها فكأنه يطالب بموتها لأن التحنيط لا يكون للأحياء وإنما للأموات وحدهم. والذين يرفضون تطوير اللغة يرفضون فكرة أنها كائن حي ويفلقونها بهالة الدين فتصبح في عيونهم لغة ليست ككل لغات العالم وإنما نسيج لا مثيل له.

والواقع يقول عكس ذلك. فالأدب العربي عظيم لا شك في ذلك. لكنه ليس الأدب الوحيد في العالم وقد أبدع شيكسبير بالانجليزية وجوته بالألمانية وموليير بالفرنسية روائع تبارى ما أبدعه المتبى وأبو العلاء وطه حسين. وأنا من الذين يرون أن الشعر العربي القديم يفوق في رفته وجماله ما أبدعه فطاحل الأدب الغربي. لكنه رأى شخصي، والأرجح أنه رأى غير موضوعي لأن ثقافتى الأولى التى نشأت عليها هى العربية.

## هل العربية لغة مقدسة ؟

من المؤكد أن اللغة العربية تدين باستمرار وجودها حتى بداية القرن الحادى والعشرين للقرآن الكريم. فلولا القرآن لما ظلت العربية لغة متماسكة يتحدث بها أكثر من ٢٧٠ مليون من البشر فى العالم أجمع.

ومن هنا فإن علاقة اللغة بالدين من أخطر القضايا وأكثرها حساسية. وقد أسهمت بعض الأفكار الجامدة التى تقف بالمرصاد فى وجه أى تطور إلى تحنيط اللغة وعزلها عن مجارة العصر. وتصب هذه الأفكار فى قالب واحد وهو الربط المباشر بين العربية والدين.

ويزعم أصحاب هذه الأفكار أن العربية ليست فقط اللغة التى نزل بها القرآن، ولكنها لغة الدين ذاته وبالتالي فهى محاطة بقسوة خاصة ترفعها إلى مرتبة تجعل المساس بها نوعاً من أنواع الكفر. ومن هذا المنطق ظهرت نظرية تصف اللغة العربية بأنها لغة «توقيفية» أى أنها منزلة من السماء وبالتالي فهى متوقفة بجوهرها عن أى إضافة أو حذف أو تعديل بيد البشر.

وفى مواجهة هذا التيار ظهرت نظرية أخرى ساندتها أصحاب العقل تقول إن العربية مثلها مثل باقى لغات العالم هى لغة «اصطلاحية» أى أن الناس اصطلاحوا على كلمات ومعان من واقع ثقافتهم وتجاربهم المتراكمة ووضعوا قواعد لضبط لفهم.

وفكرة قدسية اللغة وانتماؤها إلى عالم يسمو فوق مستوى عالم الإنسان قديمة قدم التاريخ. فالمصريون فى عصر الفراعنة كانوا يؤمنون بالإله تَحْتُ، رب الحكمة والكتابة. وكانت اللغة المصرية القديمة تكتب بخطوط ثلاثة هى الهيرغليفيه والهيراطيقية وظهرتا فى توقيت واحد تقريبا نحو ٢٢٠٠ قبل الميلاد. ثم ظهرت الديموطيقية فى نحو القرن السابع قبل الميلاد.

وكان أهل مصر يعتبرون كل هذه الخطوط واللغة نفسها هابطة من السماء وأنها هبة من الآلهة. وكان المصرى يرمز إلى اللغة بتعبير مِدو نِثَر ومعناها كلام الآلهة. وكانت القناعة الراسخة هى أن الإنسان لا علاقة له باللغة ولم يخترعها ولم تتطور أو تتبلور ولكنها هبطت من القوى الفوقية جاهزة للاستعمال دون تغيير أو تبديل.

ومن المؤكد أن كهنة آمون وحاشية فرعون ساعدوا على ترويج هذا الاعتقاد. وكان الهدف هو تكريس الكهنوت المسيطر على عقول أبناء الشعب البسطاء وإجبارهم على تبجيل اللغة، ومن ثم تبجيل الطبقة العليا المكونة من الكهنة وحاشية فرعون الذين يعرفون أسرارها دون غيرهم، والخوف منهم واعتبارهم حملة المعرفة المطلقة والوحيدة على وجه الأرض.

وفى سومر التى كانت تقع فى جنوب بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) والتى ظهرت فيها حضارة شبه متزامنة مع بداية الحضارة المصرية، كان الشعب يؤمن هو الآخر بأن اللغة السومرية مقدسة.

ويختلف العلماء إلى الآن حول الحضارة التى ظهرت فيها الكتابة أولا أهى مصر أم سومر. لكن المؤكد أن الحضارة المصرية كانت أكثر تطورا ونضجا وتركت آثارا لا زالت تبهر الإنسانية.

وأيا كان الأمر فإن السومريين كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأن الآلهة قد منّت عليهم بلغة يتحدثون ويكتبون بها، وأنه لولا إحسان الآلهة عليهم لما استطاعوا الكتابة ولا التفاهم فيما بينهم.

وهناك حضارات أخرى قديمة ظنت كل منها أن لغتها نزلت من السماء وأنها ليست من وضع الإنسان الذى يستخدمها. فالذين روجوا لفكرة قدسية اللغة العربية لم يأتوا بجديد ولكنهم ساروا على نهج العديد من الحضارات القديمة.

\* \* \*

وكل هذه الأفكار حول قدسية اللغة لا أصل لها فى القرآن ولا فى السنة. فهل يفهم من أى كلمة فى القرآن أو السنة أن العرب هم أفضل الشعوب ؟ وهل يفهم من أى كلمة فى القرآن أو السنة أن العربية هى أفضل اللغات ؟ وهل هناك أية إشارة إلى أنه يتحتم على كافة الناس تعلم اللغة العربية ؟

فالقُرآن نزل بالعربية حتى يفهمه أهل الجزيرة العربية التي هبط الوحي على أشرف أبنائها وهو سيدنا محمد ﷺ. واستخدم القرآن الكلمات والتراكيب المفهومة من أبناء هذا العصر وهذه البقعة من الأرض، والذين آلت إليهم مسئولية نشر الرسالة، وهو ما فعلوه بأمانة بعد الرسول ﷺ في عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين في عصرهم الأول. والقرآن نزل لكل أبناء البشر في كل بقعة من بقاع الأرض. لكنه هبط في مكان وزمان محددين فكان لا بد من أن يفهمه العرب أولاً. يفهمونه باللغة التي يعرفونها وبأمثلة من البيئة التي يعيشون فيها.

فجاءت أمثلة القرآن بالبقرة والناقة والصحراء وغير ذلك. وكان من الممكن أن يعطى القرآن أمثلة بالطائرة والأقمار الصناعية وناطحات السحاب مثلاً. لكن أهل الجزيرة في ذلك العصر كانوا سيمجزون عن إدراك معنى هذه الأمثلة فينتفى الفرض الأول من التنزيل، وهو استيعابهم لمعاني القرآن وإيمانهم به. ولو نزل القرآن باللغة الأرامية مثلاً لما فهم معانيه أهل مكة والجزيرة.

والقول بأن العربية لغة «توقيفية» أي منزلة من السماء، وبالتالي فهي لغة مقدسة لا يجوز المساس بها. هو قول يناقض في رأي صحيح الدين الإسلامي. فلو كانت العربية مقدسة وتسمو فوق كل لغات العالم لكان العرب قادرين من خلال استخدام هذه اللغة البلوغ إلى ما بلغه القرآن من إعجاز. فالعرب في عصر الدعوة

كانوا متمكنين من العربية تمكنا مدهشا. وكان بينهم ملوك البلاغة والبيان من فطاحل الشعراء والرواة. وقد تحداهم القرآن في أكثر من آية أن يأتوا بآية واحدة مشابهة لكلام الله ففجزوا عن ذلك.

**فقال تعالى:**

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي رَبِّهِمْ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ (البقرة ٢٣).

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ (يونس ٢٨).

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ۚ (هود ١٣).

ولو كانت العربية مقدسة فما الذي أعجزهم ؟ لو كانت اللغة مقدسة وهابطة من السماء لكان الإعجاز في ذاتها، وكان العرب قادرين بالتالي على الإتيان بمثل ما جاء بالقرآن. لكنهم فشلوا فشلا ذريعا. فالإعجاز إذا في القرآن وليس في اللغة.

وقد وقعت معجزات ذكرها القرآن من أهمها قصة عصا موسى، نتي التهمت ما جاء به سحرة فرعون. فهل يمكن أن نعتبر عصا موسى مقدسة، وأن كل عصا في الدنيا تتسحب عليها صفة القداسة ؟ بالتأكيد لا. فعصا موسى كانت مجرد أداة لمعجزة أرادها الخالق. لكن المعجزة ليست في ذاتها. كذلك فقد كانت العربية أداة لمعجزة القرآن.

وقد أدرك العرب منذ البداية أن القرآن، وإن كان بالعربية. إلا أنه ليس من لغتهم وكانوا يقولون: ليس بنثر وليس بشعر. وقال

أنيس النفارى وهو شقيق أبو ذر: عرضت القرآن على السجع والشعر والنظم والنثر، فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب.

هذا مع أن القرآن استخدم المفردات المعروفة لأى عربى فى البادية آنذاك وكان مفهوما تماما للجميع. لكنه جاء بشيء غير موجود فى اللغة ولم يستطع أحد تقليده وقتها أو بعد ذلك.

وكل هذا يؤكد لنا أن الإعجاز ليس فى اللغة العربية وإنما فى القرآن وحده. فكيف نقول إن العربية لغة مقدسة ؟ ومحاولة إحلل الإعجاز القرآنى فى اللغة التى نزل بها هو خلط لا يسانده المنطق ولا صحيح فهم الدين. لقد نزل الدين الإسلامى لكل البشر فى كل مكان وزمان. وكان من الممكن أن يتنزل بالتالى بلغة غير العربية. وكان إعجازه عندئذ سينبع من ذاته وليس من اللغة التى نزل بها.

ولو كانت العربية لغة مقدسة لكان الدين الإسلامى للعرب وحدهم وللذين يجيدون لغة الضاد دون غيرهم من البشر. وهذا يناقض صلب الدين الإسلامى الحنيف. ولو كانت العربية مقدسة فإن من لا يفهمها لا يكون مسلما كامل الإسلام والإيمان.

وهذه الفرضية تخرج من زمرة المسلمين الغالبية العظمى من الشعوب الإسلامية، كما أنها إجحاف لمئات الملايين من المسلمين الذين لا يجيدون العربية.

فقد دخل الإسلام فى حياة الرسول ﷺ أناس لا يعرفون العربية فتقبلهم النبى دون أن يثير مشكلة اللغة وعجزهم عن فهمها. بل أن الرسول ﷺ كان يعتبر هؤلاء مسلمين على درجة متساوية مع العرب

لنأطيقين بالضاد. ويقول الحديث : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى »، ولم يقل بالنسب أو العرق أو بمعرفة اللغة. ولو كان الرسول ﷺ يرى في العربية لغة مقدسة منزلة من السماء لكان من المنطقي أن يعتبر من يتحدث لغة أخرى كافرا وعاصيا لأوامر الله. وكان العربي في هذه الحالة فوق كل البشر لأنه يتحدث اللغة المقدسة.

ولو كان صحيحا ما يقذف به البعض في وجوهنا من قدسية اللغة العربية لرفض رسول الله ﷺ، وهو أدري بمشيئة الخائف، أن تترجم معاني القرآن إلى أي لغة أخرى. وهناك رواية معروفة تناقض ذلك حول سؤال سلمان الفارسي عن أبناء جنسه الذين لا يفهمون العربية: هل يترجم لهم القرآن أم لا. وكان سلمان متحرجا من ذلك فاستفتى الرسول ﷺ. وأجابه محمد ﷺ بأن عليه أن يترجم لهم معاني القرآن بلفتهم حتى يفهموه.

ولو كانت العربية لغة مقدسة لا بد لكل مسلم من إجادتها كشرط مسبق لدخوله الإسلام ولاكمال إيمانه، لفرضها الرسول ﷺ على غير العرب. وهو ما لم يحدث. ولو فعل الرسول ﷺ ذلك لانهصرت الدعوة في العرب وحدهم وانتفى بالتالي الفرص الأساسية منها. لكن الرسول ﷺ كان يدرك تماما أن اللغة ما هي إلا أداة لتوصيل الرسالة السماوية إلى بني البشر، وحرمان الفرس أو غيرهم من فهم معاني القرآن يجعل الإسلام دين الخاصة كما هو الحال بالنسبة للديانة اليهودية. فاليهود لا يسمعون إلى نشر دينهم بل يتحفظون على أي شخص راغب في اعتناق اليهودية.



وهذا عكس منطق الإسلام الذى كان الرسول ﷺ أمينا عليه فسمع  
لسلمان أن يترجم معانى الآيات إلى الفارسية.

\*\*\*

وبعد انتشار الدين الحنيف بسطت الدولة الإسلامية نفوذها  
على أراض شاسعة تغطى أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا.  
وقد تبنت بعض شعوب هذه البلدان اللغة العربية كمصر والشام  
والعراق ودول المغرب العربى. لكن غالبية الشعوب التى دخلها  
الإسلام ظلت متمسكة بلغاتها الأصلية. وهذا الذى يفسر أن غالبية  
المسلمين اليوم لا يجيدون العربية. ولم تخطر على بال الفاتحين  
العرب فكرة فرض العربية على الشعوب التى خضعت لدولتهم.  
وهذا دليل على أن فكرة قدسية اللغة لم تكن مسيطرة على الأذهان  
فى العصور الأولى للدولة الإسلامية.

واليوم فإن غالبية المسلمين فى الأرض لا يعرفون العربية. ومع  
ذلك فإنه لا يمكن التشكيك فى إسلامهم وفى صحة إيمانهم. بل إن  
نسبة المسلمين غير العرب أكبر كثيرا من نسبة العرب المسلمين.  
فحسب آخر التقديرات هناك اليوم فى العالم ١,٢٥ مليار مسلم  
فى حين أنه لا يوجد أكثر من ٢٤٠ مليون عربى تعد العربية لغتهم  
الأم، من بينهم أكثر من عشرة ملايين من غير المسلمين. أى أن  
نسبة المسلمين الذين تعد العربية لغتهم الأم تمثل ١٩,٢٪ من  
مجموع مسلمى العالم.

وبحسبة بسيطة فإن ٨١ ٪ من المسلمين لا يعرفون اللغة العربية التى نعتبرها نحن العرب الركن الأساسى للدين. كذلك فهناك فقهاء تعمقوا فى الدين وهم لا يجيدون العربية إجادة حقيقية مثل أبى الأعلى المودودى والخمينى، حتى وإن كنا لا نتفق معهما فى نظرتهما إلى الدين، وغيرهم كثيرون.

وبالتالى فإن الربط بين الدين واللغة له حدود ولا يمكن أن يكون ربطا مطلقا. وهناك فى إندونيسيا وماليزيا والهند وأفريقيا وغيرها مئات الملايين من المسلمين الذين لا يمكن التشكيك فى تقواهم وفى صدق إيمانهم، لكنهم لا يعرفون من العربية سوى بضع آيات قصار يحفظونها عن ظهر قلب وكثيرا ما لا يفهمون معناها بدقة. وفى مسابقات تلاوة القرآن الكريم يفاجأ كبار الشيوخ من العرب بشباب من بلاد إسلامية غير عربية يقرأون القرآن دون أقل خطأ وبنطق جميل، لكنهم عندما يتحدثون إليهم بالعربية لا يفهم هؤلاء الشباب شيئا ويلجأون إلى مترجم للتفاهم مع الأساتذة الممتحنين.

وقد مررت بتجربة شخصية زادت اقتناعى بذلك عندما أشرفت فى باريس على عدد مجلة رسالة اليونسكو، الذى تم تخصيصه بالكامل للإسلام عام ١٩٨٠ بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على الهجرة النبوية. وقد طلبت بهذه المناسبة من الأستاذ حميد الله، وهو هندى لجنسية ومن كبار المتخصصين فى الإسلام، كتابة مقال لإدراجه بالمجلة. ولهذا الرجل ترجمة شهيرة لمعانى القرآن باللغة الفرنسية. ولم أكد أصدق أن هذا العالم الكبير فى شؤون الإسلام لا يستطيع

فهم العربية. وسألته كيف ترجم القرآن فقال إنه يعرف القواعد الأساسية للغة واستعان بكل الترجمات السابقة للقرآن بعدة لغات. وفي العديد من البلاد الإسلامية يوجد حفظه للقرآن الكريم قادرون على ترتيله أو تلاوته دون أدنى خطأ. لكن المفارقة أن الغالبية الساحقة لهؤلاء لا يفهمون معنى ما يقرأون. وقد سألت بعضهم في هذا فقالوا إنهم يفهمون المعنى الإجمالي لكل آية نظرا. لأنها مترجمة بلغاتهم. لكنهم عاجزون تماما عن فهم الكلمات ولا المفردات العربية التي تشكل منها آيات الكتاب الكريم.

فأقول بأن كل المسلمين يجيدون العربية هو قول زائف يروج له بعض الذين يدافعون عن نظرية قدسية اللغة العربية. ولم يبدأ منطق تقديس اللغة ورفعها إلى مستوى المحرمات التي لا يجوز المساس بها في الظهور إلا بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات طويلة. وكان الدافع وراء هذا المنطق البعيد عما جاء به محمد ﷺ، هو المزايدة والغلو في كل شيء.

ومن المؤكد أن عرب الجزيرة كانوا مؤهلين نفسيا لتقبل فكرة قدسية اللغة. فالهالة التي كانوا يحيطون بها اللغة والبيان وأهميتهما المحورية لديهم في الجاهلية وعصور الإسلام الأولى لعبت دورا كبيرا في تثبيت فكرة قدسية اللغة. وبدل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي أن أعلى الفضائل في سلم أولويات العرب آنذاك تتبع من مصدرين: الأول هو الشجاعة والفروسية والثاني هو الفصاحة.

وكانت صفات الشجاعة والبطولة قاسما مشتركا أعظم مع غالبية، إن لم يكن كل المجتمعات القديمة حيث كانت القوة هي الوسيلة الأولى لبسط السيطرة والحصول على المكتسبات. وقد بحث علماء الأنثروبولوجي والاجتماع كثيرا ولا زالوا في أصل الحروب والعنف عند بنى البشر. وأيا كان الأمر، فإن العرب لا ينفردون بوضعهم الشجاعة في أعلى سلم أولويات مفاخراتهم.

أما الصفة الثانية التي كانت لا تقل أهمية عن الأولى عند العرب وأقصد بها الفصاحة والبلاغة فهي خاصية نادرة التواجد في المجتمعات القديمة. ولا أعتقد أن هناك مجتمعا في التاريخ البشرى اهتم بالبلاغة مثل العرب. ولتأكيد هذا المعنى وصف الشيخ محمد عبده البلاغة بأنها «سيدة علوم العرب». ولم يقل سيدة آداب أو فنون العرب.

صحيح أن الحضارة اليونانية القديمة كانت تولي هي الأخرى أهمية محورية للبلاغة ولكن بمفهوم مختلف. فالبلاغة عندهم كانت تقوم على المعنى أكثر مما تقوم على التلاعب باللغة، كانت تقوم على الإقناع المنطقي أكثر مما تقوم على سحر الكلمات وتتميقها.

ومن المعروف أن السوفسطائيين كانوا يشتهرون بقدرتهم على إقناع أى شخص بفكرة معينة. وعندما يقر باقتناعه بها يقوم بنفس لدى أقنعه بالرأى الأول، من خلال حجج مختلفة، بإقناعه بعكسه. وكان بعضهم يتكسب من هذه الحيل البلاغية. لكنها بلاغة المضمون لا بلاغة الزخرف.

وكان هناك فى أذهان العرب فى العصر الجاهلى ارتباط وثيق بين البيان والسحر. وهناك الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحراً». فالعرب كانوا يعتبرون أن الشعر هو نوع من أنواع السحر وأن الشاعر تملكه قوى خفية تنفث فى نفسه الكلمات والمعانى التى تخرج من فمه شعراً. وكانوا مؤمنين بأن الجن والشياطين تتدخل فى عملية الخلق الشعرى.

وهذا يفسر أنه من شدة انبهارهم بالقرآن وما جاء به من إعجاز لم يجد المشركون إلا أن يتهموا الرسول ﷺ بالسحر.

وكان الرسول ﷺ يعلق على شعر حسان بن ثابت ضد المشركين قائلاً: «لهذا أشد عليهم من وقع النبل». فالرسول ﷺ كان يدرك ما للشعر من وطأة نفسية جبارة على عقول أهل الجزيرة ونفوسهم. والوقائع التى تدل على حب الرسول ﷺ للشعر لا حصر لها. فقد كان عليه السلام يطرب لشعر الخنساء ويشجعها قائلاً: هيه يا خناس.

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة فى العام التاسع للهجرة أهدر دم مجموعة من الكفار. وكان من بينهم الشاعر كعب بن زهير. ولم يجد هذا الشاعر الماكر لنيل عفو الرسول ﷺ سوى التسلل لمجلسه وإلقاء قصيدة رائعة قال فى مطلعها:

بانت سعاد فقلبنى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن خلع عليه بردته كما جاء في كتب السيرة. وهذا معناه عند عرب الجزيرة أن هذا الرجل أصبح في حماية الرسول ﷺ. فلم يكتف النبي بالعضو عنه فقط وإنما أنعم عليه بحمايته الشخصية. ومن المؤكد أن موقف النبي تابع من رحمته وأخلاقه السامية لكن السبب المباشر في العفو والحماية هو قصيدة شعر رائعة مست الأوتار الحساسة عند محمد ﷺ.

ويروى عن معاوية بن أبي سفيان (نحو ٦٠٣ - ٦٨٠) مؤسس الدولة الأموية أنه كان يذكر ليلة الهرير بصفين وهى معركته الشهيرة على السلطة مع على بن أبي طالب (نحو ٦٠٢ - ٦٦١)، فيقول إنه قد هم بالفرار لولا أن ذكر أبيات عمرو بن الإطنابة التى تقول:

أبت لى همتى وأبى بلانى      وأخذى الحمد بالثمن الربيع  
وأجشامى على المكروه نفسى      وضربى هامة البطل المشيع  
وقولى كلما جشأت وشارت      مكانك.. نحمدى أو تستريحى

فقاتل حتى انتصر فى هذه المعركة الفاصلة. أى أن معاوية يعترف بأن لهذه الأبيات فضلا فى إقامة صرح دولته التى امتدت إلى جبال البرانس.

وظل عشق اللغة ممتدا بعد استتباب الإسلام وانتشاره. فبعد الرسول ﷺ بأربعة قرون، قال أبو العلاء المعرى بيته الشهير :

وانسى وإن كنت الأخير زمانه      لآت بما لم تستطعه الأوائل

ولم يطلب منه معاصروه من العرب أن يخترع شيئاً جديداً مفيداً أو أن يخرق قاعدة من قواعد الطبيعة التي عجز سابقوه عنها. لم يطلبوا منه أن يشفى المرضى أو أن يغير الحديد إلى ذهب. كل الذي وجدوه لتعجيزه كان أن يجد حرفاً جديداً يضاف إلى أبجديات العربية. ويقال إن أحد أطفال معرة النعمان طلب منه أن يأتي بالحرف التاسع والعشرين الذي عجز السلف عن الإتيان به.

وتدل هذه القصة إن صحت على مدى تأثر الناس وحتى الأطفال باللغة وبأنها أهم شيء في حياتهم.

\* \* \*

وكان عشق العرب الأول هو التلاعب بالكلمات والبحث عن الغريب في الشكل أكثر منه في الجوهر. وقد بلغ استظهارهم لمهارتهم واستعراضهم لعضلاتهم اللغوية أن تبادلوا رسائل تقرأ فيها الجمل من اليمين أو اليسار كما جاء في رسائل القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني مثل: «سرفلاكيا بك الفرس» أو «سورحماة بربها محروس». وقد امتد هذا الجهد المنزوف عبثاً إلى الشعر فيقول أحدهم:

مودته تدوم لكل هول      وهل كل مودته تدوم

ومن الواضح إن المعنى مسطح ومكرر. لكن هذا ليس مهماً. فالهم هو التلاعب بالألفاظ والزخرف الذي لا طائل من وراءه.

وكان واصل بن عطاء أحد مؤسسى فكر المعتزلة يلثغ فى حرف الراء. فكان يتفاداه بقدر الإمكان فى خطبه وكلامه. وله خطبة كاملة فى التحريض على بشار بن برد لا يرد فيها حرف الراء على الإطلاق. وهى تعد فى أدبيات العرب فتحا كبيرا، يفوق الاختراعات التى أحدثها كثير من المسلمين فى تاريخهم المجيد فى مجال العلم والمعرفة. والأمثلة على المكانة المحورية التى لعبتها للغة فى حياة العرب لا تعد ولا تحصى.

\*\*\*

وبالتوازي مع اضمحلال الازدهار الثقافى للدولة الإسلامى كان العرب يضيعون وقتا أكبر فى المحسنات البديعية وتزويق اللغة بدلا من البحث فى المعانى والأفكار الجديدة. وكان الاهتمام بظواهر اللغة من مؤشرات تخلف الحضارة العربية الإسلامية.

ونظرا للأهمية القصوى التى كان يوليها العرب للبلاغة فقد كان من المنطقى أن تكون المعجزة الوحيدة الثابتة التى أتى بها سيدنا محمد ﷺ تأييدا لدعوته هى القرآن. فقد هبط كتاب الله بلفة لم يعهدها العرب وفوجئوا بها تماما فسحرت ألبابهم وعاونت الرسول ﷺ على كسب المؤيدين والمريدين. فلكل أمة وسيلة إقناع تتبع من عاداتها وقناعاتها وخيالها الجماعى.

فالمعجزات التى أتى بها سيدنا عيسى كانت تناسب سكان فلسطين الفقراء الذين كانت ترعبهم فكرة الموت والفناء. فجاء المسيح بمعجزات تلهب مشاعر أهل زمانه ومكانه. فكان يبرىء،



الأكمه والأبرص ويحيى الموتى. كما جعل مجموعة ضخمة من مريديه يأكلون ويشبعون بسمكة واحدة وقطعة خبز واحدة، يكفيان شخصا واحدا بالكاد.

أما عرب الجزيرة وخاصة أهل مكة فقد كان يسحرهم البيان وحسن تنميق الكلمات. وكان نجوم هذه المجتمعات هم الشعراء والرواة الذين كانوا يتفننون في اختيار المفردات والمعاني ليخلبوا عقول سكان الجزيرة. وكانت اللغة هي أداتهم التي طوعوها للوصول إلى أغراضهم فصارت ركنا أصيلا في حياة المجتمع البدوى والحضرى في زمن الدعوة.

لذلك فعندما تقرأ الأنجيل تستشعر أن الناس في عهد المسيح كانوا يؤمنون بالدين الجديد الذى كان يبشر به بفضل المعجزات التى كان يأتى بها عيسى. وكانت المعجزات من أهم أدوات نشر الديانة المسيحية بعد وفاة المسيح. أما عند ظهور الإسلام فقد كان تلاوة الآيات حسب ما نعلم من كتب السيرة هي التي تفتح للناس طماعة الإيمان وتشرح قلوبهم للدين.

ومعروف قصة دخول عمر بن الخطاب الإسلام عندما هجم على بيت اخته لردعها عن الدين الجديد فخارت قواه وانهزمت عزيمته العدوانية أمام بلاغة الآيات التي استمع إليها من سورة طه. وفي كل الأفلام والتمثيلات الدينية نلاحظ كم كان يتأثر الناس بتلاوة الآيات الكريمة فتدمع عيونهم وتمتريهم حالة من الخشوع والانسياق النفسى لما يتلى عليهم.

فاختلاف الثقافة والطباع والعادات جعل لكل مجتمع مفاتيح خاصة لتقبل الدين الجديد. وبالنسبة للعرب فقد كانت البلاغة هي الباب الملوكى الذى فتح أمام الإسلام مجتمعات مكة ثم المدينة ثم باقى الجزيرة العربية.

ومن غير شك أن نزعة إثارة الجنس العربى عند بنى أمية لعبت دورا كبيرا فى انتشار فكرة قدسية اللغة العربية. فقضية القضايا بعد انتقال الرسول الكريم ﷺ إلى الرقيق الأعلى كانت السلطة الدنيوية. وكان السؤال الذى يؤرق الجميع هو: من يحكم أمة الإسلام ومن أحق بخلافة سيدنا محمد ﷺ ؟

وكان هذا السؤال وراء الفتن والحروب المتعاقبة التى عرفها العالم العربى الإسلامى دون انقطاع منذ حروب الردة حتى تفسخ الدولة الإسلامية الذى انتهى إلى سقوط بغداد فى أيدي المغول عام ١٢٥٨ .

وبعد أن نجح معاوية بن أبى سفيان فى وضع حد للفتنة الكبرى و سئبت له أمور الحكم على أثر اغتيال على كرم الله وجهه عام ٦٦١. عمل على تكريس ما كان معمولاً به منذ وفاة الرسول ﷺ: أن يكون الحاكم من قريش وحدها دون غيرها. وكان من الطبيعى أن ينتج عن ذلك أفضلية وخيرية خاصة للجنس العربى وبالتالي للغة العربية.

واستغل أنصار النزعة الجديدة من الأمويين نزول القرآن الكريم بالعربية لفرض فكرهم على أعدائهم من كل صنف ولون ومنهم

الخوارج والشيعة وأهل العراق بصفة عامة. وكان معظم هؤلاء من أبناء الأمصار التي دخلت الإسلام بعد الفتح وكان معظمهم من غير الجنس العربي ومن خارج الجزيرة العربية.

وقد كتب الكثيرون عن مآثر اللغة العربية وتفوقها عن باقي لغات العالم وتعمدوا الربط الاصطناعي بينها وبين الدين حتى يكسبوها مكانة عليا، تجعل الناس يخشعون للغة بدلا من أن يخشعوا للمعاني التي نزل بها القرآن. وهناك مئات من أبيات الشعر في هذا المعاني. وسأعطي نموذجا واحدا هو ما أورده الطحطاوى في «تخليص الإبريز» :

ومن شرف الأعراب أن صحمدا أتى عربى الأصل من عرب فصيح  
وأن المشائى أنزلت بلسانه بها حصنه فى الخطاب من المدح

وفى كتاب «فقه اللغة» يقول الثعالبي (٩٦٢ - ١٠٢٨) بعد وفاة النبي ﷺ بما يناهز ٤٠٠ عام :

«من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ. ومن أحب النبي العربى أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب». ثم يسترسل في مقدمة كتابه قائلا إن :  
«محمد ﷺ خير الرسل والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة. والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل إلخ...»

وهذا الكلام يلخص النظرية التي تربط بين الدين واللغة والتي غذتها العصبية القبلية ورغبة العرب في أن يكون لديهم سلاح قوى يواجهون به تدهور مكانتهم التي وصلت فيمما بعد إلى حد الاضطهاد من قبل الأجناس غير العربية.

ويذكر هذا بمحاولات البعض اليوم الربط بين الدين والسياسة وإخضاع السياسة لمفاهيمهم الضيقة للدين، تحقيقا لمصالحهم الخاصة.

وتشعر دائما أن هناك جهدا يبذله البعض لإقناع الناس بأن عربية خلقت للدين الإسلامي وأن الدين سبب وجودها. لكن لحقيقة مختلفة عن ذلك. فكل الأبحاث العلمية تدل على أن اللغة عربية قد ظهرت قبل هبوط الوحي على سيدنا محمد بمئات السنين.

وكان العرب أنفسهم في حياة الرسول ﷺ مقتنعين بقدم لغتهم. وكنت هناك عدة روايات عن أول من نطق بالعربية منها أن أول من تكلم بلغة الضاد هو إسماعيل بن إبراهيم وأنه نسي لغة أبيه وهي لسريانية. وهناك رواية تؤكد أن أول من نطق باللسان العربي هو يعرب بن قحطان وهو أيضا أول من نزل مع أولاده بأرض اليمن ليتخذ منها موطنًا لأهله. ولذلك سمى عرب جنوب الجزيرة العربية بالقحطانيين.

وقد أكد حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ هذه الرواية الأخيرة بقوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم مصريين ذوي نعر  
وكنتم قديما ما لكم غير عجمة كرام ، وكنتم كالبهائم فى النعر

وقد طرأت على اللغة العربية البدائية تطورات كبيرة حتى  
تبلورت وأصبحت هناك لغة أدبية مهذبة عرفت بلغة قريش.  
والأرجح أن لغة قريش كانت هى السائدة قبل الدعوة، والدليل على  
ذلك أن كل ما وصلنا من شعر جاهلى بهذه اللغة، وقد يجادل  
البعض بأن هناك شعراء كانوا يكتبون بلهجات مختلفة لكنها لم  
تحفظ بعد نزول القرآن واستبعاد كل اللهجات المغايرة للهجة  
قريش. والرد على هذا الطرح هو أن الملاحظات التى اعتبرها العرب  
فى الجاهلية أفضل ما عندهم من شعر، جاءت كلها دون استثناء  
بلغة قريش التى نضهمها اليوم. ونستخلص من هذا أنه كان هناك  
شعراء يضعون شعرهم بلهجات مختلفة لكن أفضل الأشعار وأرقاها  
كانت بلغة قريش.

ولكن هل معنى هذا أن العربية هى لغة الدين وحده ؟ وهل معناه  
أن أى مساس بها يعد مساسا بالدين ؟

الإجابة عن هذين السؤالين هى شرط مسبق أساسى للاتفاق  
على كيفية ومدى التطوير اللازم للعربية فى بداية القرن الحادى  
والعشرين. والإجابة عن السؤالين عندى هى بالنفى القاطع. فقد  
أصبحت العربية هى لغة التعامل اليومى لأبناء إحدى وعشرين دولة  
من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة. وأصبحت العربية تحتوى على  
كلمات وتعبيرات لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد.

وإذا أردنا الحفاظ على اللغة العربية الفصحى بحيث تظل الأجيال القادمة قادرة على فهمها فالحل الوحيد هو إخضاعها لمتطلبات العصر كما حدث لكل لغات العالم الحية بدون استثناء.. وباستثناء وحيد وهو اللغة العربية.



وفكرة قدسية اللغة وارتقاء الناطقين بالعربية فوق مستوى باقى نى البشر هى فكرة تتناقض فى رأى مع جوهر الإسلام والمؤمنون العميق للرسالة المحمدية. فرسالة الإسلام تقوم على المساواة الكاملة بين أبناء الإنسانية جمعاء. ولست فى حاجة لتكرار الأدلة الناصعة على ذلك سواء من آيات القرآن أو من السنة المكرمة.

أما فكرة اللغة المقدسة التى أنزلت على شعب مختار، فهى فكرة غريبة عن ديننا وإن كانت موجودة فى ديانات أخرى. ومنطق أن لعرب هم الشعب المفضل لله تعالى هو منطق يناقض أعظم تعاليم الإسلام حول مساواة أبناء آدم عليه السلام.

وبلغة عصرنا، فإن دعاوى تفوق العرب على غيرهم من الأجناس واحتقار اللغات الأخرى غير العربية هى دعاوى عنصرية تحل كل أفكار نظريات التفوق الجنىسى التى ينسبها العالم الحديث وخاصة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. والمنطق الكامن وراء الفكر العنصرى هو أفضلية جنس على باقى أجناس العالم بسبب الصفات متميزة الالاصقة بأهله وانتفاء هذه الصفات عن الأجناس الأخرى.

وتجد في أدبيات الفكر المنصرى الغربى كلاما يبدو منطقيا عن تفوق الإنسان الأبيض والجنس الأرى. لكن هذا المنطق مفلوط من أساسه وقد رفضه سيدنا محمد ﷺ دون لبس في خطبته بحجة الوداع وفي كل أحاديثه النبوية. فكيف نتقبله اليوم بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ عاما من المفترض أننا نضجنا فيها عقليا ونفسيا واصبحنا أكثر وعيا بحقائق العالم ؟

صحيح أن المدافعين عن تلك الأفكار في العالم العربى اليوم يلبسونها أثوابا براقة جديدة كما يفعل دعاة المنصرية في الغرب. لكن المعنى في النهاية واحد وهو تفوق العرب واللغة العربية على باقى أبناء البشر ولغاتهم جميعا.

وإذا كانت معرفة اللغة العربية ليست مفروضة على بنى الإنسان فكيف نعتبرها نحن لغة فوق كل لغات العالم وبالتالي لا يمكن المساس بها ؟

وإذا أعملنا العقل الذى منحناه إياه الله تعالى لأدركنا أنه لو كانت اللغة العربية مقدسة وهابطة من السماء، لكان من الطبيعى أن يتحدث بها كل سكان الأرض. فكيف تكون العربية مقدسة فى حين أن ٩٦٪ من أبناء البشرية لا يعرفونها ؟ وكيف تكون مقدسة فى حين أن ٨١٪ من المسلمين أنفسهم يجهلونها جهلا تاما ؟

\*\*\*

## المسيحيون والعربية

من أخطر السخافات التي تستقى أصولها من فكرة قدسية العربية هي أن المسيحيين لا علاقة لهم بلغة الضاد. وأن المسلمين وحدهم هم ملاك العربية والعارفين بأسرارها وآدابها. ومن الغريب أن الاضطلاع بتدريس العربية بالمدارس يقتصر على المسلمين وحدهم دون المسيحيين بحجة أن الدين يقتصر باللغة وأن مدرس اللغة لا بد أن يقوم بتدريس الدين كذلك. وقد استقرت هذه الأفكار في الأذهان على أنها واقع لا يجادل وأصبح حجب تدريس العربية عن المسيحيين تكريسا لفكرة قدسية اللغة العربية.

لكن هذا الكلام لا يثبت أمام حقائق دامغة لا يمكن إنكارها. فالمسيحيون العرب لعبوا طوال حقبة التاريخ دورا هاما في الحفاظ على لغة العربية وتطويرها. وفي إبراز كنوزها جنبا إلى جنب مع خزانهم المسلمين. بل إن المسيحيين بدأوا هذا الدور قبل نزول القرآن على سيدنا محمد.



فالعربية بدأت قبل الإسلام بعدة قرون وتبلورت فى صورتها التى نعرفها الآن قبل نحو مائة عام من البعثة النبوية الشريفة. وفى العصر الجاهلى كان هناك شعراء على أرقى مستوى ينظمون الشعر كسلاسل الذهب ويلهبون المشاعر والعقول بأجمل المعانى.

وكان معظم هؤلاء من عبدة الأوثان، لكن بعضهم كانوا من المسيحيين وحتى من اليهود. ومن أشهر الشعراء اليهود السموأل الذى يعد من فطاحل الشعر العربى القديم.

وكان من أبرز شعراء ما قبل الإسلام عدى بن زيد النصرانى الذى كان يحظى بلقب «شاعر الحيرة الأوحده». نظرنا لمكانته الشعرية الضخمة وتفرّد أسلوبه.

أما فى جيل المخضرمين، فإن واحدا من أعلى الشعراء مكانة كان مسيحيا وهو الأعشى. وقد ولد قبل عام ٥٧٠، ومات بعد ٦٢٥ بقليل حسب أفضل المصادر، وكان من أكثر العرب بلاغة وفصاحة لفوية.

وفى العصر الأموى لمع نجم عدة شعراء مسيحيين كان أبرزهم الأخطل والقطامى وكانا يدينان بالمسيحية. ويحظى الأخطل بمكانة متميزة فى تاريخ الأدب العربى. وفى الماضى كان رواة وذوافة الأدب مثل حماد الراوية وأبو عمرو بن العلاء يقدمونه على غالبية اشعراء المسلمين ويعتبرونه فعلا ذا نسب عربى صحيح ولغة عربية رصينة وكان الأخطل يقول: «إن العالم بالشعر لا يبالى، وحق الصليب، إذا مر به البيت السائر الجيد، أمسلم قتاله أم نصرانى».

وقد قام الأب لويس شيخو بتأليف كتاب بعنوان «شعراء النصرانية في الجاهلية» يعد فيه من برزوا في الشعر قبل ظهور الإسلام. لكن يبدو أنه من فرط حماسه جعل كل من لم يثبت من شعره مباشرة أنه وثى يدين بالمسيحية، وهو تجاوز غير مقبول علميا بطبيعة الحال. وبالتالي فقد جعل معظم شعراء العرب قبل الإسلام من المسيحيين. وكما جاء بمقدمة الكتاب، فقد تدر بذلك مارون عبود عندما قال عن لويس شيخو: «سمعنا بكتابه شعراء النصرانية فاستقصدناه، فإذا كل من عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى. كان التعميد بالماء فإذا به صار بالحبر».

\*\*\*

وكما أثبت في كتاب «الداء العربي»، فقد هدم الإسلام الأسس العقلية التي قام عليها مجتمع الجزيرة العربية في الجاهلية فاستقرت بعد ظهوره مثل مختلفة تجعل لتقييم الإنسان معايير جديدة تماما. لكنه سرعان ما عاد الفكر القبلي يطل برأسه من حديد وعادات العصبية القبلية تسيطر على العقول وخاصة مع تولي الأمويين مقاليد الحكم. وكانت العصبية العربية تعطى فرصة لشعراء من غير المسلمين للنبوغ في مناخ يقيم الناس أساسا بمعيار تفرق والانتماء العشائري.

ومع العباسيين تغيرت الأمور وضعفت شوكة العصبية العربية شيئا فشيئا وخاصة منذ ولاية المعتصم (٧٩٥ - ٨٤٢) أي بعد نحو قرنين

من وفاة الرسول. وغلبت عندئذ الصبغة الدينية على الخلافة مع سطوة الأعاجم الذين كانوا يزايدون في الدين نظرا لأنهم يستمدون قوتهم وشرعيتهم منه. فهم لا يستطيعون إثبات انتمائهم لقبائل عربية أصيلة ولا تجرى في دماثهم قطرة عربية واحدة.

وفي هذه الظروف ظهر تيار الشعبوية الذي يناصب العرب العداء كرد فعل على احتكارهم للسلطة والثقافة ولكل الأمور العامة منذ بداية الدولة الإسلامية. وقد تعامل الأعاجم بحساسية شديدة مع اللغة العربية واضطروا لإعلاء شأنها بل والمزايدة في ذلك نظرا لأنهم يريدون التأكيد على صحة إسلامهم وتمسكهم بالدين.

هنا أخذت اللغة تصطبغ بصبغة دينية مقدسة وبدأت فكرة أن العربية هي لغة القرآن وأنها للمسلمين دون غيرهم من أبناء البشر. وظهرت مقولة أن «العربية لا تنتصر» وفكرة أن النصرانية والبيان العربى لا يجتمعان.

ويروى بطرس البستانى في كتاب «أدباء العرب» (ج ٣: الأندلس وعصر الانبعاث) أنه عندما طلب داود باشا صاحب العراق من الشاعر الشيخ صالح التميمي أن يعارض قصيدة للمعلم بطرس كرامة اعتذر بقوله:

عهدناك تغفو عن مسيء تعذرا ألا فاعفنا من رد شعر تنصرا

ولفظه «رد» هنا بمعنى معارضة. ومن الواضح أن صاحب هذا البيت لا يرضى بأن يقدم مسيحي على كتابة الشعر. فالشعر واللغة

فى نظره حكر على المسلمين وحدهم وليس من حق المسيحيين أن يخوضوا فيهما.

وعندما اكتملت سيطرة العناصر غير العربية على الدولة فى العصر العباسى، كادت دراسة اللغة تقتصر على المسلمين وحدهم نظرا لأنها تتم فى المساجد والمدارس الدينية وارتبطت بحفظ القرآن.

ونجا المسيحيون إلى العلوم فبرعوا فيها وظهرت أجيال من الأطباء والفلاسفة وعلماء الرياضيات استعان بهم الخلفاء والأمراء. أما المسلمون فكادوا يغيبون عن ساحة العلم ودراسته فى مناخ من التردى الحضارى.

وقد حاول بعض المسيحيين محاكاة الكتاب المسلمين فتعلموا القصائد والبديعيات فى مدح السيد المسيح وحوارييه باللغة العربية. وكان أشهر هؤلاء المطران جرمانوس فرحات والخورى نيقولاوس الصائغ صاحب أول بديعية مسيحية باللغة العربية.

\*\*\*

ولم يقتصر إسهام المسيحيين فى الجاهلية على نظم الشعر والارتفاع باللغة العربية إلى مستويات أرقى. فقد لعبوا دورا فى نهاية الأهمية فى بلورة الكتابة. وكما هو معروف فإن الأمية كانت غالبة على العرب فى جاهليتهم ولم يكن عرب البادية يشعرون بأهمية الكتابة. وكان أكثر من اهتم بالكتابة أهل اليمن وعرف خطهم باسم المسند الحميرى.

أما أهل الشمال فقد كانت الكتابة تستخدم في أضيق نطاق ولأسباب تجارية أو ما شابه ذلك وخاصة في المدن الكبيرة مثل مكة والطائف ويثرب. ويتفق علماء اللغة على أن المسيحيين كانوا وراء تطور الكتابة وخاصة في الحيرة وما جاورها. ويرجع المؤرخون أن القرشيين تعلموا خط الجزم من نصارى الحيرة في رحلاتهم التجارية إلى العراق فحملوه إلى مكة فظهرت فيها الكتابة قبل الإسلام.

وكان من أوائل الذين عرف عنهم الكتابة بالعربية زيد بن حماد وعاش نحو عام ٥٠٠ ميلاديا، أى قبل نحو ٧٠ عاما من مولد الرسول ثم ابنه الشاعر عدى بن زيد، المذكور من قبل، وكلاهما مسيحيان.

\* \* \*

وبعد قرون من هذا العهد البعيد أسهم المسيحيون في أحد أهم الأنشطة الثقافية التي كان لها تأثير ضخم على اللغة وهي الترجمة. وهناك دراسات عديدة عن أثر حركة الترجمة وبيت الحكمة في توهج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. لكن أثرها الهام في اللغة لم يدرس حتى الآن بما فيه الكفاية.

وقد ظهرت بشائر الاتجاه إلى الترجمة عن اللغات الأخرى في العصر الأموي، لكنها لم تتحول إلى حركة منتظمة إلا مع العباسيين حتى بلغت عصرها الذهبي في عهد المأمون مع إنشاء بيت الحكمة.

وتكاد حركة الترجمة إلى العربية في هذا العصر تقتصر على المسيحيين دون غيرهم. وكان معظم المترجمين الذين برعوا في هذا العصر من السريان النساطرة، ومن بينهم أبناء بختيشوع وإسحق بن حنين بن إسحق ويوحنا بن البطريق ويوحنا بن ماسويه على سبيل المثال لا الحصر. وكان يوحنا بن ماسويه، طبيب الخلفاء، يتولى إدارة بيت الحكمة مما يدل على المكانة التي كان يحظى بها المسيحيون في الحياة الثقافية في هذا العصر المتألق حضارياً.

لكن أوسع المترجمين صيتاً وأكثرهم نشاطاً كان حنين بن إسحق (٨٠٨ - ٨٧٣) وهو من النساطرة. وقد ولد بالحيرة وعاش في بغداد وكان نجم نجوم بيت الحكمة. كما كان من ألمع المترجمين أيضاً ابن نوناً (٨٢٠ - ٩١٢) المولود في بعلبك، وهو ملكي. كما برز يحيى بن عدي (٨٩٣ - ٩٧٤) الملقب بالمتطقي.

وكما هو معروف فقد ترجمت الكثير من أعمال فطاحل الفكر الاغريقي من اليونانية إلى السريانية قبل ظهور الإسلام وبعد ذلك. لكن عملية الترجمة إلى العربية لعيون الكتب الفلسفية والعلمية لم تبدأ بطريقة منهجية إلا في منتصف القرن الثامن الميلادي.

ويورد كتاب «العرب من الرسالة إلى التاريخ» معلومات قيمة في هذا المجال مستنداً إلى مراجع عربية أهمها الفهرست لابن النديم وتاريخ الحكماء لابن القطفي.

وطبقاً للمعلومات الواردة في هذه المراجع فقد اضطلع بعملية الترجمة إلى العربية ٥٦ مترجماً أفنوا حياتهم لأداء هذه المهمة،

وكانوا كلهم من المسيحيين. ويقول كتاب «العرب من الرسالة إلى التاريخ» إنه كان هناك ١٢ مترجما خلال النصف الثاني من القرن الثامن ثم ٣٠ خلال القرن التاسع وهو العصر الذهبي للترجمة ثم ١٤ في القرن العاشر. وهو يصنفهم كالتالى: ٢٥ من النساطرة و ١٠ من اليعاقبة و ١٠ ملكيين ومارونى واحد.

وكان لهؤلاء إسهام ضخم فى إضفاء آفاق جديدة ليس للعقل العربى فحسب، وإنما للغة العربية كذلك. فقد اشتقوا كلمات جديدة على لغة العرب التقليدية، فأضفوا بذلك مزيدا من الحيوية والمرونة على العربية التى كانت آنذاك أرقى لغات العالم قاطبة.

وقد فتح هؤلاء المترجمون الباب على مصراعيه أمام علماء العرب الأفذاذ من أمثال الفارابى والرازى وابن سينا وغيرهم. فالتراكيب والكلمات التى استحدثها المترجمون خلال نقلهم من علماء وفلاسفة الإغريق ساعدت علماء العرب على صياغة اكتشافاتهم ونظرياتهم التى كانت فتحا فى كافة المجالات العلمية آنذاك.



وعاد المسيحيون إلى القيام بدور إيجابى فعال بعد ذلك بعدة قرون أيضا. وكان دورهم هذه المرة هو استقدام صناعة جديدة على المنطقة كان لها أبلغ الأثر على اللغة العربية، وهى الطباعة. وقد يتصور البعض أنهم جلبوا مطابع تطبع بالحروف اللاتينية، لكن الواقع أنهم اهتموا بجلب مطابع بالحروف العربية، وهى اللغة التى يحبونها ويعتبرونها لفتهم الأم. وقد يتصور البعض أيضا أن جلب

المسيحيين لمطابع عربية في الشرق كان بهدف تجارى بحث وليس حبا في اللغة العربية. لكن ذلك أيضا بعيد عن الحقيقة، حيث لم تكن المطابع آنذاك مدرة للكسب كما هو الحال منذ الستينيات من القرن الماضي.

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن الطباعة بالحروف العربية نشأت في أوروبا أولا خلال القرن السادس عشر على يد الإيطاليين بصفة خاصة. لكن ما يهمنا هنا إسهام المسيحيين العرب في إدخال الطباعة وانتشارها في العالم العربي.

ويرجع مؤرخو الطباعة أن أول نص طبع بالعربية كان، كتاب المزامير، وتمت طباعته عام ١٦١٠ في دير القديس أنطون قزحيا وكان من الرهبان الموارنة. وقد طبع باللغتين السريانية والعربية.

أما أول مطبعة عربية صرفة في الشرق فقد أنشئت بحلب سنة ١٦٩٨ على يد البطريرك أنثاسيوس الرابع. ويورد بطرس البستاني في كتاب «أدباء العرب» (ج ٣) أنه قد قلب مرارا بين الأرثوذكسية والكاثوليكية الملكية.

وكانت أول مطبعة عربية في لبنان مطبعة مار يوحنا الصايغ من الروم الملكيين وقد أنشئت عام ١٧٣٢ في بلدة الشوير ثم مطبعة القديس جاورجيوس وهو من الروم الأرثوذكس وأنشأها في بيروت عام ١٧٥٣. ومن الواضح أنه كانت هناك منافسة بين المثل المسيحية المختلفة للتأكيد على هويتهم العربية.



وفى عام ١٨٧٤ ظهرت فى بيروت المطبعة الأمريكية ثم المطبعة الكاثوليكية. وبعد ذلك أنشئت مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ للمعلم بطرس البستانى و خليل سر كيس. وأنشأ هذا الأخير بعد ذلك المطبعة الأدبية عام ١٨٧٤ .

وفى مصر بدأت الطباعة مع الحملة الفرنسية ( ١٧٩٨ - ١٨٠١ ). وأنشأ محمد على مطبعة بولاق التى سميت المطبعة الأميرية. لكن أول مطبعة أهلية فى مصر كانت المطبعة القبطية التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع سنة ١٨٦٠ .

وقد انتشرت المطابع فى العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ). لكن الريادة فى هذا المجال كانت للمسيحيين فساهموا بذلك فى توفير الأداة اللازمة لنشر فكر النهضة ولازدهار الصحافة وما واكب ذلك من تطور حاسم فى اللغة العربية.



ثم جاء عصر النهضة فكان للمسيحيين مرة أخرى دور فى منتهى الأهمية فى بعث اللغة العربية وآدابها وكانوا ركنا من أهم أركان الانتعاش الفكرية واللغوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضهم كانوا من رواد حركة التطور الشعرى التى ظهرت على استحياء مع بداية القرن التاسع عشر. وكان من أشهر هؤلاء الرواد نيقولا الترك ( ١٧٦٣ - ١٨٢٨ ) وبطرس كرامة ( ١٧٧٤ - ١٨٥١ ) وهما من أبرز من سعوا لإحياء الشعر العربى وبعث تراثه العظيم.

وعاد المسيحيون إلى الصفوف الأولى في الإبداع بأجمل وأرق القصائد بعد طول انقطاع بسبب التعصب اللغوي الذي عانوا منه طويلا وحرّمهم من استخدام العربية بحجة أنها لغة المسلمين وحدهم. فظهر خليل مضران وبشارة الخوري الملقب بالأخطل الصغير وكانوا من أعظم شعراء العرب في القرن العشرين.

كما تنجرت موهبة شعراء المهجر الذين اشتغل حينهم لوطنهم العربي بعد أن هاجروا منه وبزغ نجم إيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة ورشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي.

وربما كان ألمع من هاجروا وتركوا بصمة على الأدب العربي حبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١)، صاحب كتاب «النبي» الذي يعد تحفة أدبية بمعنى الكلمة. وبرغم أن الجانب الأكبر من بداعات جبران باللغة الانجليزية، إلا أنه ترك شعرا رقيقا سيظل محفوظا في التاريخ الأدبي العربي، ومن أشهر ما غنته المطربة اللبنانية فيروز من قصيدة المواكب:

أعطى الناس وعين	فألغنا خير صلاه
وأبين الناس بيقين	بعد أن تغشى الدنيا
	*
أعطى الناس وغن	وانس داء ودواء
إلها الناس سطور	كتسبت لكن بهاء

أما دورهم فى إنشاء وتطوير فن الصحافة فهو معروف للجميع. وقد أسهموا جنباً إلى جنب مع إخوانهم المسلمين فى تطوير اللغة العربية وتطويرها لمقتضيات الأخبار والمقالات التى نشروها فى صحفهم.

ومن أقدم دور الصحف التى لا زالت تلعب دوراً متميزاً فى الصحافة العربية «الأهرام» و«دار الهلال». وقد أنشأ الأهرام بالأسكندرية فى سنة ١٨٧٦ الأخوان سليم وبشارة تقيلاً وهما مسيحيان، ثم نقلاه إلى القاهرة عام ١٨٩٢.

أما مجلة الهلال فقد أنشأها عام ١٨٩٢ جرجى زيدان، وهو مسيحي لبناني نزع مثل الأخوين تقيلاً من لبنان إلى مصر بسبب الاضطهاد العثماني.

وفى الأسكندرية صدرت صحيفة «المحرسة» عام ١٨٨٠ على يد أديب إسحق وسليم النقاش. أما المقطم التى انطلقت من القاهرة سنة ١٨٨٩ فقد أسسها ثلاثة مسيحيين هم يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس. وفى القاهرة أيضاً أنشأ نقولاً شحادة «الرائد المصرى» عام ١٨٩٦.

وفى عام ١٩١٠ اشترك مسلم ومسيحي هما الشيخ أمين تقي الدين وأنطون الجميل فى إصدار مجلة سياسية أدبية باسم «الزهور».

وفى لبنان، كانت مجلة «الجنان» التى أنشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٧٠ من أوائل المجلات السياسية الأدبية التاريخية

فى الوطن العربى. وأنشأ ابنه سليم البستاني، «الجنية» التى كانت أول جريدة منتظمة شبه يومية فى لبنان عام ١٨٧١ .

وفى دمشق، أنشأ سليم حنا عنجورى سنة ١٨٨٧ مجلة «مرآة لاخلق» وأنشأ جورج متى وجورج سمان سنة ١٩٠٠ مجلة «الشمس».

وفى بغداد ظهرت مجلة «زهرة بغداد» للأباء الكرمليين عام ١٩٠٥ . وحتى فى الموصل أنشئت مجلة «إكليل الورود» للأباء الدومنيكان عام ١٩٠٢ .

ومن الواضح أننى اقتصر هنا على الإسهام المسيحى وحده. فهناك دراسات كثيرة عن تاريخ الصحافة من الممكن للقارئ أن يطلع عليها للإلمام بهذه الصناعة التى كان لها أبلغ الأثر على اللغة العربية.

ولم يكتف المسيحيون بالمشاركة فى إصدار الصحف والمجلات فى العالم العربى. فقد كانوا سباقين أيضا فى إنشاء الصحف لعربية فى الخارج.

ومن الرواد الأوائل فى هذا المجال رزق الله حسون الذى نادر عام ١٨٥٥ بإصدار جريدة «مرآة الأحوال» فى الأستانة عاصمة خلافة الإسلامية.

وأصدر أديب إسحق فى باريس مجلة «مصر القاهرة» عام ١٨٧٩ . إله خليل غانم عام ١٨٨١ بإصدار «البصير» فى عاصمة النور.

أما في أمريكا فقد أصدر اللبنانيون في المهجر عدة صحف في أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين لا يتسع المجال لاستعراض أسمائها هنا.

وعندما انفتح العالم العربي على الغرب في عصر النهضة كان المسيحيون اللبنانيون سباقيين إلى ترجمة عيون الأدب الفرنسي والانجليزى خاصة إلى العربية، تماماً كما حدث في أوج ازدهار الدولة العباسية. وكان أشهر هؤلاء سليم البستاني ونجيب طراد ونيقولا رزق الله وطانوس عبده.

كما كان لبعض المسيحيين إسهام لا يستهان به في مجال اللغة والنحو من أمثال بطرس البستاني والخوري نعمة الله باخوس ونصيف اليازجى وله كتب في شرح النحو والصرف مثل «نار القرى في شرح حروف الفراء» و «الجمانة في شرح الخزانة».

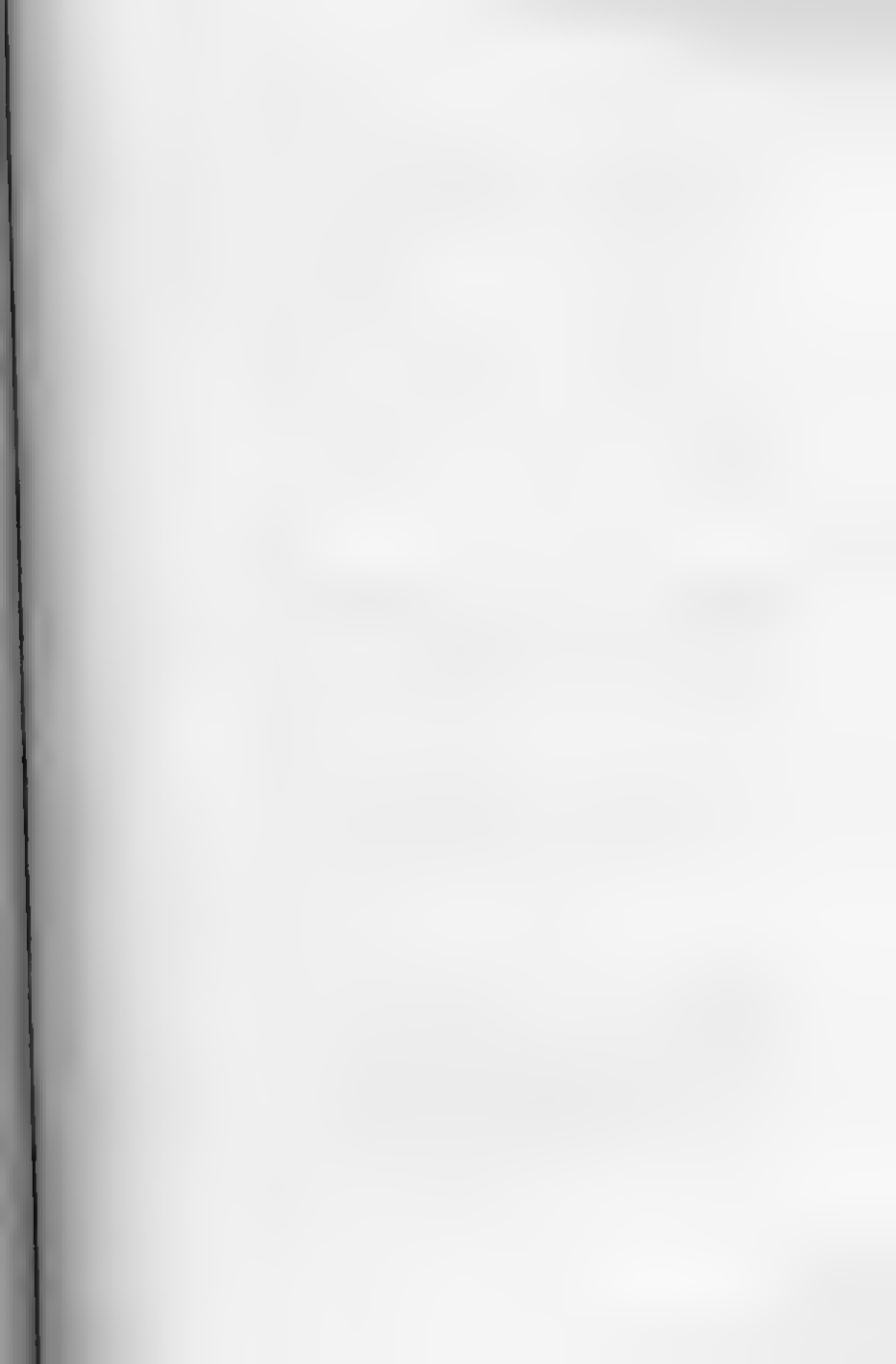
وهناك أدلة لا حصر لها على عشق المسيحيين للعربية ودفاعهم عنها في مواجهة كل محاولات التشويه.

ففي بداية القرن العشرين ظهرت بالعراق مجلة «لغة العرب» التي نذرت نفسها لحماية العربية من أية شوائب وللإبقاء على نقاء اللغة. وكان صاحبها الأب أنسطاس الكرملى.

كما أصدر إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ - ١٩٠٦) كتاباً بعنوان «لغة الجرائد» يحمل فيه بعنف على لغة الصحافة حرصاً منه على لغة الضاد.

ويتضح من هذا الاستعراض السريع مدى إسهام المسيحيين في دعم وتطوير اللغة العربية في كافة العصور وكل المجالات. من نشأة لكتابة إلى الأدب إلى الترجمة إلى الطباعة إلى الصحافة، جنباً إلى جنب مع إخوانهم المسلمين.

\* \* \*



## المتنبى يخاف من الإعراب

لا أظن أن هناك شعباً في العالم يعشق لغته مثل العرب. وهناك أسباب عديدة تجعل اللغة مكانة خاصة في الوجدان العربي. فهي أولاً التي نزل بها القرآن الكريم. كما أنها اللغة التي خلف لنا بها لسلف تراثاً أدبياً وفنياً يهز أذن أوتار النفس البشرية. ولغتنا حميلة بالفعل وتتميز بموسيقية تلقائية تطرب لها الأذان حتى لمن لا ينهم المعاني بدقة. كما أنها لغة اشتقاقية على عكس غالبية لغات لعالم القديمة والحديثة وكلها لغات تركيبية. وميزة اللغة الاشتقاقية المرونة والسهولة في استخراج الكلمات والتراكيب الجديدة. وصدق حافظ إبراهيم حين قال على لسان العربية .

أنا السحر من أحشائه الدر كامن      فهل سألوا العوالم عن صفاتي

وكل هذه المقدمات لا بد أن تؤدي إلى نتيجة منطقية واحدة: هي تمسك العرب بالتعامل بهذه اللغة الفصحى التي يعشقونها ورفضهم لأي وسيلة أخرى للتعبير عن أنفسهم. لكن الواقع كما نعلم عكس ذلك تماماً.



وهناك سؤال بسيط لا نطرحه على أنفسنا لأن ثقافتنا تملئ علينا عدم الاقتراب من مناطق نعتبرها محظورة بل محرمة على التفكير. والسؤال ببساطة هو: كيف هجر العرب هذه اللغة طوعا على الرغم من عشقتهم لها وتمسكهم بها ؟ لماذا لا يتكلم الناس في مصر أو في العالم العربي باللسان الفصيح ؟ لماذا أصبحت الفصحى وكأنها لغة إجبارية تستخدم في تحصيل العلوم والكتابة الرسمية فقط ؟

فنحن نستخدم في تعاملاتنا اليومية على كل المستويات اللهجة النادرة سواء في مصر أو في أي بلد عربي آخر. وحتى في مكة المكرمة مهد الرسول وينبوع اللغة العربية الأصيلة يتحدث الناس لهجة نادرة تبعد عن العربية بقدر ما تبعد عنها اللهجات المصرية والسورية. وإذا كانت العربية لغة مقدسة كما يدعى البعض فكيف نبذها مسلمون مؤمنون بدينهم ويقيمون فرائضه ولا يدخرون وسعا في إرضاء ربهم ؟

وقد وصل الأمر إلى أن العربي كان يفضل فناء الدنيا قبل فناء لغته كما جاء على لسان الشاعر المهجري:

لغة يهون على بنيها أن يروا يوم القيامة قبل يوم وفاتها

ومع كل ذلك، فلا يوجد عربي واحد في الشرق أو الغرب يتعامل بالفصحى بتلقائية ولممارسة حياته اليومية. فمن يتحدث الفصحى يتكلف ما هو ليس في طبيعته ويبذل مجهودا للتعبير عن نفسه بها وعادة ما يخلط في كل جملة ينطق بها.

كيف نفسر هذا التناقض الواضح بين المقدمات والنتيجة  
الواقعية التي نعرفها جميعا ؟

ستجد بالتأكيد بعض العقول المتتوية التي ستقدم تبريرات غير  
منطقية تفرضها على الجميع بأسلوب الإرهاب الفكري.

لكن الإجابة المنطقية الوحيدة هي أن العربية من الصعوبة  
والاعتقيد بحيث جعلت العرب يعرضون عنها بالمعصرة للإغراب مسا  
في أنفسهم ومن أجل التفاهم فيما بينهم.

الإجابة المنطقية الوحيدة، مهما كانت قاسية على النفس، هي  
أن تفصحى لا تلائم مقتضيات التفاهم وتقل المعلومات وتفسير  
حقائق العالم الذي يعيش فيه العرب. سواء في مصر أو السعودية  
أو سوريا أو الجزائر أو في أي بلد عربي آخر. وظهرت للهجات  
كسبل ثلثاني على لسان الشعوب العربية لصعوبة استخدام العربية  
في حيز التعامل اليومي.

ليس عندي أدنى شك في أن سكان كل البلدان العربية لم يتعلموا  
عن العربية ببساطة أو عن طيب خاطر. وهم لم يعرفوا عن لغة  
لحد منذ قديم الزمان ولم يلجأوا إلى لهجات بديلة عن طريق  
الصدفة. فلا بد أنهم شعروا بالعجز الحقيقي عن التعبير عن  
أنفسهم باللغة التي يحبونها ويشعرون تجاهها بالتحليل والاحترام  
لأنها اللغة التي نزل بها كتابهم المقدس.

وقد ترجم أمير الشعراء ولع لغوي بلفته في قصيدة نقاشها عند  
سفن الأهرام ترحيبا بالكاتب البندي أمين الريحاني حيث قال

إن الذى ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد

\*\*\*

ومع تعاقب الأجيال تم تخليق اللغات العامية فى مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا من العربية الفصحى من ناحية واللهجات التى كانوا يستخدمونها قبل تعريب بلادهم من ناحية أخرى.

ولأسف أننا لا نعرف بطريقة علمية كيف كان يتحدث الناس خلال الحقب المختلفة فى التاريخ العربى لأن الموروث المدون يقتصر على الفصحى إلا باستثناءات نادرة. قد يفتى البعض بأننا نلر يقين من كيفية كلام العرب فى الماضى البعيد، لكن مثل هذا التأكيد أقرب إلى «الفهلوة» منه إلى المعرفة العلمية.

الشئ المؤكد هو أن العرب فى كل مكان هجروا الفصحى ولجأوا إلى أساليب أخرى للتفاهم فيما بينهم. ومن هذا المنطلق علينا أن نبحث فى أسباب البعد عن لغة يعشقها العرب وانتجت أجمل المعانى الشعرية والأدبية التى يدرسونها فى المدارس والجامعات.

فاللغة التى يختارها الناس للتعامل هى الأقرب إلى العقل وإلى النفس وليست اللغة التى يتكلف الإنسان جهدا بالغا للتعبير عن نفسه بواسطتها.

والدارسون لتطور الحضارات أدركوا أن اللغة معاكسة التوازى مع التقدم الحضارى. فكلما وصلت إحدى الحضارات إلى درجة من

التعقيد والتطور الراقى كلما شعرت بالاحتياج الفطرى إلى لغة سهلة تعبر عنها. وهذا هو سر الجهود المستمرة فى تبسيط اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من لغات الدول المتقدمة. وكلما ازداد التقدم كلما ازدادت الحاجة إلى تبسيط اللغة.

وبعيدا عن النفاق، فإن علينا أن نطرح على أنفسنا مجموعة من الأسئلة التى نرفض عادة حتى التفكير فيها، ناهيك عن طرحها ومناقشتها على الملأ. وأول هذه الأسئلة هو عدد العرب القادرين على فهم التراث الشعرى العربى، حيث أن الشعر هو أهم ما تركه العرب من آثار فنية وثقافية. وبمعنى آخر من يستطيع أن يقرأ قصيدة للمتنبى أو ابن الرومى ويفهم معانيها فهما معقولا ؟ كم شخصا قادرا اليوم على القراءة يستطيع أن يمسك بديوان البحترى أو أبى تمام ويتذوق ما به من أشعار ؟

وإجابتى عن هذا السؤال هى أن النسبة القادرة على هذا لن تزيد بحال من الأحوال عن واحد فى المائة من أبناء الشعوب العربية فى أحسن التقديرات. ومن يفترض على هذه النسبة ويرفع شعارات حماسية عليه أن يقوم بتجربة عملية على من حوله من الأشخاص العاديين أى غير المتخصصين فى الأدب أو اللغة العربية. وحتى لو شملت هذه التجربة خريجى أفضل الجامعات فى الطب أو الهندسة أو التجارة أو حتى كليات الآداب باستثناء قسم اللغة العربية، فإن النتيجة لن تزيد عن نسبة هزيلة للغاية وأكد وأنا مطمئن أنها ستقل عن ١ فى المائة.

وإذا أخذنا فى الاعتبار نسبة الأمية المرتفعة فى العالم العربى،  
والتي تزيد اليوم عن ٥٠ ٪، سنجد أن افتراض ١ ٪ الذى ذكرته قد  
يكون أعلى كثيرا من الواقع. فأغلب الظن أن نسبة من يفهمون  
الشعر العربى، وهو العمود الفقرى لتراثنا الثقافى، لن تزيد عن  
نصف فى المائة أو أقل من ذلك. ربما ارتفعت قليلا فى دول تعداد  
سكانها ضئيل، وحصل أبنائها على قسط من التعليم أكثر من  
غيرهم. لكن هذه النسبة لن تزيد بحال من الأحوال عن ٢ أو ٣ ٪  
على أكثر تقدير وفى عدد ضئيل جدا من الدول. إنما المتوسط  
العام لن يزيد عن نصف فى المائة.

\*\*\*

ولا يقتصر الأمر على الشعر وحده، فلو عرضنا كتاب «الأغاني»  
على المتعلمين من غير المتخصصين فستكون نسبة الذين يفهمون  
الكتاب بصورة مرضية والقادرين على إدراك معانيه وتذوق ما  
أبدعه الأصفهاني نسبة ضئيلة للغاية.

والغريب أننى عندما طرحت هذا السؤال على البعض أبدى  
غضبه من الطرح ذاته. وقد تهرب من الإجابة غالبية من طرحت  
عليهم السؤال ورفضوا أن يتروا بحقيقة لا تقبل أى شك، وهى أن  
الغالبية العظمى من المصريين والعرب غير قادرين على استيعاب  
الشعر القديم والأدب الكلاسيكى دون شرح مستفيض.

ولا أفهم لماذا نتهرب من الحقيقة ونكره أن نرى الواقع كما هو.  
وكما حاولت أن أبرز فى كتاب «الداء العربى»، فإن من أخطر عيوب

العقل العربي الإصرار على رفض مواجهة الواقع والميل إلى الاستسلام الإرادى للأوهام. فمن أكثر ما يزعجنا أن يخرج علينا من يكشف المستور الذي يعرفه الجميع لكن الكل يتكتمه ويرفض أن يجهر به.

وانغالبية العظمى من القادرين على فهم أو تذوق الشعر العربي القديم ينتمون على الأرجح للجامعات ومراكز البحث الأكاديمي والأساتذة وغيرهم ممن وهبوا حياتهم للغة والأدب. أما الباقون ففهمهم للشعر تقريبي ويدركون المعنى العام للبيت لكنهم بالتأكيد لا يدركون معانيه الحقيقية والعميقة.

ولا اعتقد أنه يوجد شخص واحد في العالم العربي يستطيع أن يدعى أنه قادر على فهم كل المفردات ولا تفوته كلمة واحدة في الشعر العربي القديم. فهل يعقل أن يستوعب عقل واحد ما يقارب ٢ مليون كلمة مهما أوتى من ذاكرة حديدية ؟ مثل هذا الكم الهائل في حاجة إلى كومبيوتر للحفظ والتخزين. وقد وجدت القواميس في كل اللغات لهذا السبب بالذات وهو استحالة أن يستوعب عقل واحد معاني كل الكلمات في أي من لغات العالم. والمشكلة كما قلت هي أن القواميس اللغوية غير متوفرة في العربية بالسهولة وبأسلوب العمل الذي نجده في اللغتين الانجليزية والفرنسية بصفة خاصة.

وتلاميذ المدارس يكتفون بحفظ الشعر دون فهمه لمجرد النجاح بالامتحان. وهم يسرعون بنسيان ما حفظوه بمجرد الخروج من قاعة الامتحانات وكأنه «هم وانزاح» من على كاهلهم.

وأعترف أنني كنت من هؤلاء. فقد كنت أحفظ شعرا كثيرا نسبيا من أيام المدرسة لكنني لم أكن أفهمه. وعندما استرجعت هذا الشعر بعد بلوغ سن النضج الذهني، أدركت المعاني التي كانت خافية عني تماما في السابق. والغريب أنني كنت قد نسيت هذا الشعر ولم أكن أتخيل أنه لازال كامنا في أعماق ذاكرتي. لكنه كان بالفعل مخزونا في العقل الباطن حتى تم استحضاره عندما أعدت قراءته وأنا كبير.

والأرجح أن الغالبية العظمى من المصريين والعرب لا يتاح لهم أن يستعيدوا من أعماق الذاكرة أبيات الشعر التي حفظوها في مرحلة الدراسة. ولولا والدي رحمه الله الأستاذ محمد مفيد الشوباشي، ولولا احترافي الكتابة لظل الشعر الذي حفظته مدفونا في مجاهل اللاوعي بذاكرتي ولم يظهر أبدا إلى السطح.

وأستخلص من هذا أن الذين يجيدون العربية إجادة تسمح لهم بفهم التراث، هم الذين أفنوا حياتهم في تعلم اللغة والدين. وهؤلاء مطلوبون في مجتمعاتنا، لكنه لو فعل الجميع مثلهم فلن تكون لدينا هياكل البنية الأساسية للدولة لأن هؤلاء غير قادرين على استيعاب العلوم الدنيوية.

وأعلم أن مثل هذا كلام وتلك الاستفسارات ستثير قلق وحفيظة الكثيرين وسيجد هؤلاء تبريرات وتفسيرات غير منطقية، لكنها ترضى قناعتهم العمياء بالارتباط العضوي بين الشعوب العربية

ولغة الضاد. وبالتأكيد أن هذه العلاقة العضوية موجودة بالفعل.  
لكنها ليست كما يدعيه حراس العربية وحماة تراث السلف.

\* \* \*

وصعوبة اللغة العربية ليست ظاهرة جديدة يعاني منها الإنسان  
العربي في هذا الجيل وحده. فهي سمة قديمة لها جذور في أبعد  
عصور التاريخ العربي.

ومن يجادل في ذلك عليه أن يتأمل بيتا للمتنبي والظروف التي  
كتب فيها هذا البيت. يقول فارس العربية:

وحلمة في طريق خفت أعربها فيهتدي لي فلم أقدر على اللحن

ويروى لنا محمود محمد شاكر ملايسات هذا البيت في كتابه  
«المتنبي» فيقول إن الشاعر الكبير كان قد اضطرب للهروب من «حمى  
جرش» خوفا من بطش شخص يدعى ابن كروس وصفه بالأعور.  
وقد اقتحم الشاعر كما يقول الكتاب ظلمات البادية متوجها إلى  
أنطاكية. ونظم قصيدة لدى وصوله إلى بر الأمان يمدح بها أبا عبد  
الله الخصيبى الذى كان ينوب عن أبيه في مجلس القضاء بأنطاكية  
كما يقول محمود شاكر.

لكن المهم بالنسبة لنا هنا هو المعنى الموجود في هذا البيت  
الوارد بالقصيدة.

فالمتنبي يقول إنه خاف خلال هروبه أن ينطق بلغة عربية سليمة  
خوفا من أن يكتشف الناس هويته. وكلمة اللحن هي الخطأ في



إعراب الكلمة وبالتالي فى نطقها وتشكيلها. أى أن النطق بلفة سليمة يدل على أن المتكلم شخص غير عادى وخارق للعادة. فالنطق الخطأ إذا هو القاعدة. ومن لا يخطئ هو الاستثناء. فإذا نطق المتنبى دون خطأ فمن الممكن أن يُكشف ويعرف أنه شخص ينتمى إلى الصفوة.

وإذا صدقت نظرية علوية المتنبى فإن خوفه من افتضاح أمره كانت هاجسا يؤرقه على الدوام. لكن المهم عندنا هنا هو أن المتنبى يقر بأن من كان يتحدث العربية فى هذا العصر بلا أخطاء كان يعد شخصا غير عادى.

فكيف نلوم الناس اليوم على عدم إلمامهم باللفة وجهلهم بقواعدها ؟ فمن الواضح أن عدم معرفة اللفة كان سمة دائمة فى العالم العربى. ونحن نتخيل فيما يبدو أن الناس فى الماضى وخاصة فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ثم فى العصرين الأموى والعباسى كانوا كلهم سيبويه أو المتنبى أو أبا تمام. وهذا غير صحيح على الإطلاق. فصعوبة اللفة جعلت إجادتها التامة دائما صفة من صفات الخاصة التى كانت تحفظ القرآن وتقرأ كتب التراث.

أما العامة أى غالبية الشعب العربى أو الخاضع لسلطان الأمة الإسلامية فقد كانت معرفتهم باللفة معرفة محدودة تسمح لهم بالتفاهم وربما القراءة والكتابة، لكنها ليست على أیه حال معرفة رصينة وسليمة لقواعد اللفة.

وإذا كان الشباب يتكبد أعتى المشاق في بداية القرن الواحد والعشرين لتعلم قواعد اللغة العربية، فعلينا أن نلتمس لهم العذر، خاصة إذا علمنا بما أفصح عنه أحد ألمع بلغاء العرب في العصر الحديث وهو الإمام محمد عبده. ففى المجموعة الكاملة التى جمعها الأستاذ محمد عمارة يقول محمد عبده حرفيا فى كتاب شرح النحو عن تعلمه لقواعد اللغة: «فحملنى عدم الفهم على الهرب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسى». فإذا كان محمد عبده شخصيا قد تعذب منذ نحو مائة وخمسين عاماً بسبب قواعد العربية فماذا عن شبابنا اليوم ؟



وقد أدرك رفاة الطهطاوى صعوبة اللغة العربية عندما بدأ يتعلم الفرنسية خلال بعثته لباريس التى دامت من ١٨٢٦ إلى ١٨٢١ . وخلال هذه السنوات الخمس استطاع الطهطاوى الإلمام بالفرنسية وقواعدها إلى درجة مبهرة جعلته قادرا على الكتابة بها دون أخطاء فى قواعد اللغة أو الإملاء. وقد وقعت على خطاب محفوظ بأحد المتاحف الفرنسية فى باريس بخط يد الطهطاوى. وبصراحة فقد ذهلت لأن الخطاب ليس به خطأ واحد فى اللغة. وأعتقد أن هذا لا يدل فقط على عبقرية الطهطاوى، لكنه يدل كذلك على السهولة النسبية لتعلم الفرنسية خاصة بالنسبة لشخص غريب عن الثقافة الأوروبية. فتعلم الفرنسية قد يكون سهلا على شخص إيطالى أو إسبانى نظرا لتقاربها مع لفته الأم. لكنه صعب جدا بالنسبة لعربى تربى على لغة سامية.

ويقول رفاعه في «تخليص الإبريز» عن الفرنسية : كان لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية فإنه خال منها ومن الواضح أنه يقارن الفرنسية بالعربية العامة بالمترادفات والتلاعب بالعبارات والمحسنات البديعية..

المشكلة هي أن من يرفضون بشدة أى تطوير ملموس فى اللغة هم أنفسهم الذين يرفضون بضرارة أى تجديد فى كل مظاهر الحياة. وهم الذين يقفون فى مواجهة كل محاولة جادة للخروج من مأزق التمسك بالماضى على حساب الحاضر والمستقبل. وهم أنفسهم الذين يفرضون مرجعيات سلفية لكل قضايا المجتمع ومشكلاته المستعصية. وهؤلاء يقحمون الدين الحنيف فى كل شئ.. ليس فى السياسة فقط لكن فى التعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية والقوانين وقواعد السلوك العام. وهم يعمدون إلى ترويع الناس معنويا من أجل الحفاظ على القديم الذى يناسب مصالحهم.

وقد نجح هؤلاء فى إسكات كل صوت ينادى بالتنوير بتوجيه أشنع الاتهامات إليه وأولها بأنه معاد للدين وكافر بالله. وقد أصبحت هذه الاتهامات المخيفة جاهزة على ألسنة حراس الماضى وليسوا فى حاجة إلى سند من المنطق للإطاحة بمن يفتح فمه للاعتراض. وأصبح الإنسان متهما عندهم بالكفر حتى يثبت إيمانه.

وفى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الصادر عام ١٩٣٧ ينبه الدكتور طه حسين إلى خطورة تحجر اللغة العربية ويدعو إلى إصلاح اللغة بصورة عاجلة. وفى الفصل الذى يحمل رقم ٢٧ بطبعة دار المعارف الصادرة عام ١٩٩٦ وتحت عنوان : «ما اللغة العربية التى تتولى الدولة تعليمها» يقول طه حسين إن إصلاح اللغة «أصبح ضرورة من ضرورات الحياة بل من ضرورات الدين نفسه».

لكن المفارقة هى أن عميد الأدب العربى لا يبدأ بنفسه. فهو يكتب بلغة بلاغية رائعة الجمال. لكنها لغة ليست فى متناول القارئ العادى سواء فى عصره أو فى بداية القرن الحادى والعشرين. واللغة التى استخدمها طه حسين فى هذا الكتاب وفى كل ما كتب بعيدة كل البعد عما نادى به من ضرورة تيسير اللغة وتريبها إلى العامية. ومع الاعتراف بجمالها الكلاسيكى فإن لغة طه حسين أقرب كثيرا إلى لغة الجاحظ منها إلى اللغة التى ينادى باستخدامها. وقد حاول فى أحد كتبه تطبيق رأيه فى كتابة اللغة كما تنطق لكنها كانت تجربة فاشلة ولا يعرف عن هذا الكتاب إلا المتخصصين دون غيرهم.

\*\*\*

ومن أبرز الأمثلة على التحجر ذهنى الذى يعكسه بجلاء تحجر لغوى فى الألفاظ والمعانى ما ظل يصنعه الشعراء العرب لقرون طويلة. فقد كان تقليد القديم شرطا حديديا للإبداع الشعرى وكل ما خرج عن السلف كان يعتبر محاولات شيطانية غير مقبولة. فكان الشعراء حتى العصر العباسى كثيرا ما يضطرون إلى البكاء على

الأطلال والتفنى بالناقة وبالبيداء وبالرمح فى عصور اختفت فيها كل هذه العناصر من حياتهم. فالببدو الرجل كانوا يذرفون الدموع على الأطلال التى تركها قوم حبيبتهن بسبب الترحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء وظروف معيشية أكثر ملاءمة. أما شعراء العصر الأموى والعباسى الأول فكانوا فى معظمهم يعيشون فى المدن أو القرى التى لا يحتاجون فيها إلى الترحال وكانت حبيباتهم تسكن مكاناً ثابتاً ولا يحتاج أهلن إلى التنقل.

ومع ذلك فقد كان الشعراء فى ذلك العصر يذعنون لإرادة التيار المحافظ الغالب مع أنهم لا هم يعيشون فى الصحراء ولا يركبون الجمال ولا يستخدمون الرماح. لكنهم ظلوا مضطرين لمحاكاة القدماء بنفس المعانى ونفس الكلمات فجاء شعرهم مضحكاً ومحزناً فى الوقت ذاته.

وكان الشعراء المتمردون على القديم يلقون ألواناً من العنت تصل إلى حد الضرب والطرد والحبس والاتهام بالزندقة. كل هذا بفعل من يدعون حماية الدين وحماية اللغة من عدوان «المارقين». لكنه إذا كانت العربية قد نالت شيئاً كبيراً من التطوير فذلك بفضل هؤلاء «المارقين» الذين اجتروا على المحرمات وشعروا بضرورة كسر القوالب الجامدة المفروضة من قبل حراس الماضى فى كل زمان.

وبرغم الإرهاب الفكرى لبعض حماة القديم آنذاك استطاع الشعراء الفكاك فى كثير من الأحيان من إفسار الماضى وبدأوا يعبرون شيئاً فشيئاً عن بيئتهم وعصرهم.

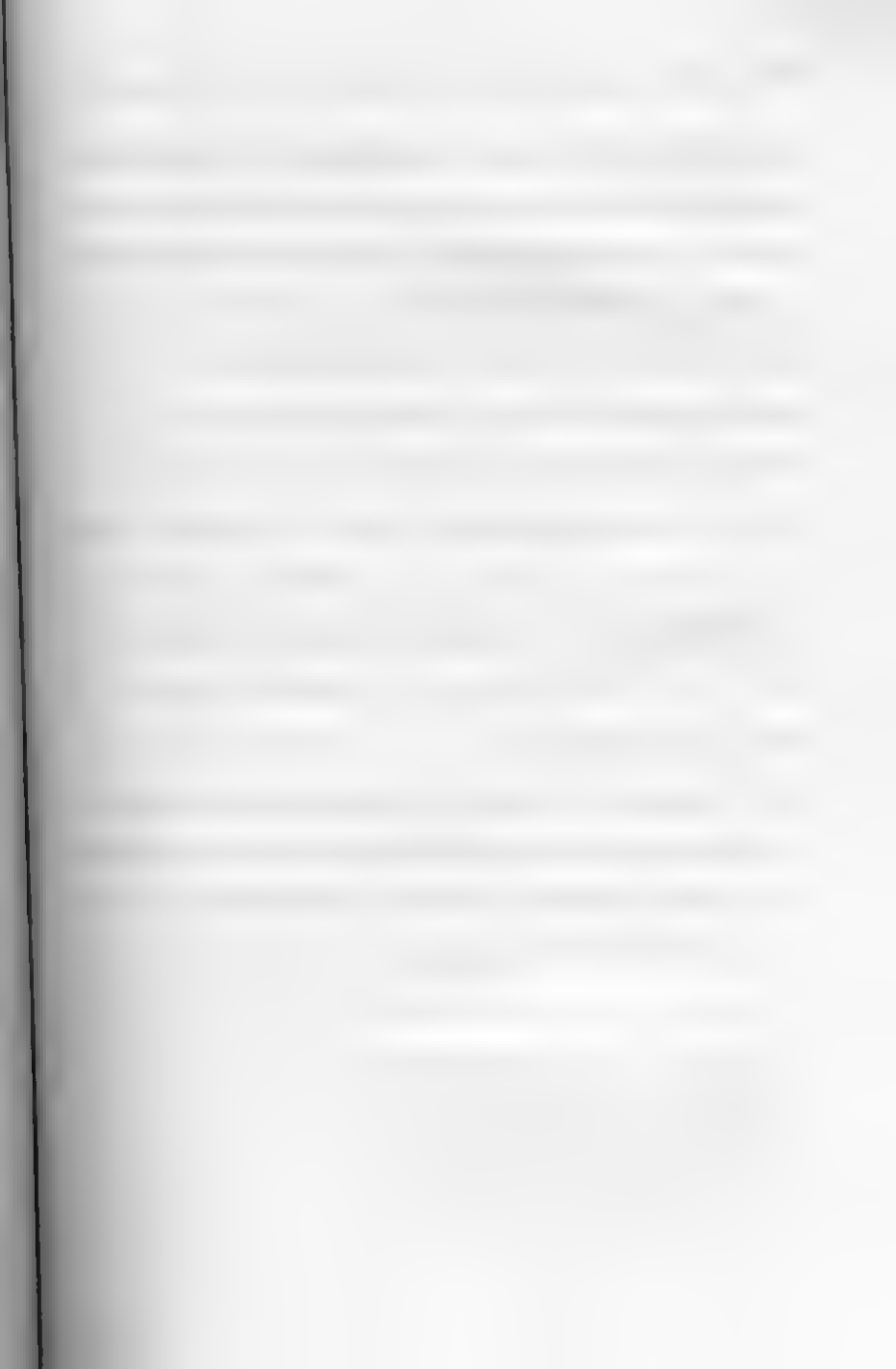
ويذكرنى ما لاقاه هؤلاء الشعراء من عنت ومعاناة على يد التيارات المحافظة على القديم، بالذين يعيشون بيننا اليوم ويريدون فرض أفكار لم يعد لها ما يبررها فى عالم القرن الحادى والعشرين كما يصرون على عدم المساس باللغة التى ورثناها من السلف وأن الألوان أن تطورها حتى نجارى عصرنا الحالى.

فلا توجد دولة كبيرة واحدة كما قلت لا تبذل الجهود المستمرة من أجل تطوير لغة التعبير التى يستخدمها أبنائها بهدف مواكبة التطور الطبيعى الذى يفرض نفسه على المجتمعات.

أما نحن العرب فنعانده سنة التطور ونصادر المستقبل لمصلحة الماضى. والنتيجة أن غالبية العرب يحضنون فى لفتهم الأم ولا يلمون بقواعدها الأساسية.

وما أستخلصه مما سبق ليس أن الشعوب العربية شعوب جاهلة وعاجزة عن استيعاب لغتها الأم. لكن ما استخلصه هو أن اللغة العربية لم تتطور كما ينبغى لتلائم العصر الذى نعيش فيه وأنه آن الأوان لتحديثها. ومن العبث فعلا التمسك برفض التغيير على أساس دعاوى واهية تلعب دورا رئيسيا فى تخلف العقل العربى.

\*\*\*



## شيزوفرينيا لغوية

لعل أدق توصيف للحالة اللغوية التي يعيشها الإنسان العربي منذ قرون طويلة هو ما يطلق عليه في علم النفس «شيزوفرينيا». فهو عندما يتحدث على سجيته في منزله وفي عمله وفي الشارع والسوق، يستخدم اللهجة الدارجة السائدة في بلاده. لكنه عندما يقرأ الصحف أو يستمع إلى نشرات الأخبار في الإذاعة والتلفزيون وعندما يقرأ الكتب أو يكتب طلباً أو مذكرة في عمله، فإنه ينتقل إلى لغة أخرى مختلفة هي العربية الفصحى.

ولو عرّفنا العربية بأنها الفصحى وحدها فسنقع في مفارقة غريبة وهي أن أكثر من نصف أبناء الشعوب العربية ليسوا عرباً. فمن المعروف أن أكثر من ٥٠ ٪ من سكان العالم العربي يجهلون العربية الفصحى. ولو عرّفنا العربية بأنها اللهجات التي تتحدثها لشعوب العربية نكون قد وقعنا في خطأ كبير.

ولأننى أعيش حالة الشيزوفرينيا اللغوية، مثلى مثل ملايين العرب، كنت أتصور أن الفارق بين الفصحى واللهجات ضئيل للغاية



وأن من يعرف أحدهما وخاصة الفصحى يعرف الأخرى أو على الأقل لا بد أن يفهمها. لكن التجربة وخاصة مشاهدتى للأجانب الذين يتعلمون العربية أقنعتنى بمدى الهوة بين العامية والفصحى. فالأجانب الذين يجيدون الفصحى إجادة تامة وعكفوا سنوات من عمرهم على دراسة لغتنا يصفرون أفواههم عندما أحدثهم بالعامية المصرية ولا يفهمون شيئا مما أقول.

إذا فكل عربى متعلم يتعامل فى حياته اليومية بلغتين مختلفتين حتى وإن جمعتهما مشردات عديدة وبعض القواعد العامة.

وقد يجادل البعض بأن اللهجات كانت موجودة دائما فى العالم العربى فما الذى استجد حتى نفكر الآن فى إيجاد مخرج من هذا الوضع ؟ وهم يرون أن حالة التعايش التى استمرت قرونا متعاقبة يمكن أن تستمر هكذا إلى أبد الأبدىين. وقد سردت فى المقدمة بعض المستجدات التى تجعلنا نقلق على لغتنا الجميلة.

وبالإضافة إلى تلك الأسباب، فإنه يفت على هؤلاء البعض أن حالة الشيزوفرينيا اللغوية فى الماضى كانت مقصورة على شريحة محدودة للغاية فى المجتمعات العربية وهى القادرة على القراءة والكتابة. ولأن نسبة الأمية كانت تزيد بال تأكيد على ٩٥ ٪ من الشعوب العربية حتى زمن قريب، لم تكن حالة الانقسام اللغوى تشكل ظاهرة تمس المجتمع ككل. أما اليوم وبفضل انتشار التعليم فقد أصبحت نسبة مستخدمى الفصحى لا تقل عن ٥٠ ٪ من أبناء الشعب العربى. وهذا تغير جذرى لا يمكن إهماله. فالقوى الحيوية

للشعوب العربية هي تلك الفئات المتعلمة القادرة على دفع عملية التطور وهي التي تعاني معاناة حادة مما أسميه شيزوفرينيا لغوية.

في الماضي كانت الغالبية الساحقة من أبناء الشعوب العربية تعبث وتموت دون أن تعرف شيئا عن الفصحى. وكانت الفئة القليلة من علماء الدين أو اللغة يكرسون حياتهم للدرس والتحصيل. فلا تمثل حالة الشيزوفرينيا مشكلة معقدة بالنسبة لهم. فتحول الشيزوفرينيا من واقع تعيشه القلة إلى مشكلة عامة في المجتمع. هي قضية حديثة. ومع زيادة نسبة التعليم المضطردة في العالم العربي، سوف تتحول مشكلة انشيزوفرينيا إلى أزمة تضاف إلى أزمات العقل العربي في القرن الحادي والعشرين.

ويبذل الإنسان العربي لا شعوريا جهدا ضخما للتوفيق بين اللفتين في عقله. لكننا لا نشعر بهذا المجهود الذهني نظرا لأننا نشأنا على هذا الوضع الشاذ ورضعنا منذ الطفولة تلك الازدواجية اللغوية فاعتبرناها أمرا مسلما به يتسق مع طبيعة الأمور. بل إن المتعلمين من العرب يخلطون في عقلهم الفصحى والدارجة وكأنهما لغة واحدة أو وسيلتان للتعبير بينهما تقارب شديد. نكن الواقع أن الفارق بين الفصحى واللهجات يكاد يوازي الفارق بين لغات مختلفة وإن كان لها أصل واحد مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية على سبيل المثال.

\* \* \*

ولو فكرنا قليلا بموضوعية يتضح لنا أن هذا الوضع غير طبيعي وأنه يكلف العقل العربي إرهاقا ذهنيا يحط من قدراته، كما

يشتت ملكاته الفكرية. ولأن الإنسان كما هو معروف لا يفكر بطريقة مجردة وإنما من خلال كلمات تتشكل في عقله، فإن العربي مهدد بانفصام في التفكير: هل يفكر بالفصحى أم بالعامية ؟ وأيا كانت الإجابة فمن المؤكد أن هناك تشويشا في عقله لا يساعده على الوضوح الذهني.

وما يزيد الأمر تعقيدا أن العربي الطامح إلى التقدم في العملية التعليمية وتطوير قدراته يضطر إلى إجادة لغة أجنبية سواء الانجليزية أو الفرنسية. والسبب في ذلك لا يخفى على أحد وهو أن كل العلوم والتخصصات أصبحت تصاغ بإحدى هاتين اللغتين وبالانجليزية بصفة خاصة.

فإذا أراد أى شاب أن يكون طبيبا أو مهندسا أو كيميائيا أو خبيرا في الكومبيوتر أو حتى صحفيا أو مؤرخا أو جغرافيا فلا بد له من الاطلاع على المصادر الأجنبية في تخصصه ولا يمكنه ان يعتمد على العربية التي تأخرت كثيرا في كل ميادين العلم والمعرفة. وبالتالي فإن العربي المثقف لا بد له أن يجيد ثلاث لغات على أقل تقدير: لغة يتحدث بها في حياته اليومية، وأخرى يكتب ويقرأ ويدرس بها، ثم لغة أجنبية تفتح له أبواب العلم والمعرفة الحديثة.

صحيح أن الإنسان العصري المثقف في أى مكان بالعالم عليه أن يعرف أكثر من لغة لأن ذلك يفتح أمامه آفاقا واسعة ويجعله منفتحاً عقليا على العالم الخارجى، إلا أن معرفة المطلوب هو معرفة لغة أجنبية عنه وليس لغتان متضاربتان في صلب ثقافته الواحدة.

ولكى ندرك أهمية تعلم لغة أجنبية يمكننا الرجوع إلى ما كتبه فى هذا الشأن شيخ عظيم من شيوخ الإسلام هو الإمام العبقري محمد عبده. وهذا الشيخ الجليل هو قطب من ألمع أقطاب الإستتارة فى الحقبة الماصلة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، على عكس بعض تجار الدين فى هذه الأيام من الذين يبذلون الجهود لجذب الأمة العربية والإسلامية إلى التواء ولنشر أفكار تؤدى إلى الخرافات والخزعبلات.

يقول محمد عبده فى فصل بعنوان «تعلمى للفرنسية» فى كتاب الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده «من تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة ما نصه: «إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أوروبية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية. كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين فى جميع أقطار الأرض، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم؟ أو للخلاص من شر الشرار منهم؟».

هكذا لخص الشيخ محمد عبده منذ أكثر من مائة سنة الأسباب التى تجعل معرفة لغة أجنبية وخاصة الإنجليزية أو الفرنسية ضرورة لأى إنسان ينشد التطور الشخصى والمنفعة العامة.

وتعدد اللغات وإن كانت له إيجابياته الكثيرة إلا أنه قد يشتت الإنسان عن صلب المعرفة خاصة عندما يضطر إلى تعلم لغتين لممارسة حياته العادية كما هو الحال بالنسبة لنا نحن العرب.

وإذا قارنا هذا الوضع بالمواطن الأمريكى مثلاً نجد أنه من الممكن أن يكتفى بلغة واحدة ليصل إلى ما يريد. فاللغة التى يتحدث بها ليسترى حاجته من السوق هى نفسها اللغة التى درس بها والتى يشاهد بها نشرات الأخبار بالتلفزيون وهى أيضاً التى يحتاجها فى كل المراجع الهامة فى تخصصه. أيا كان هذا التخصص. وكذلك الحال إلى حد بعيد بالنسبة للفرنسى أو الألمانى.

وقد يفتى البعض بأن مشكلة الأزواج اللغوى موجودة فى الانجليزية والفرنسية وكافة اللغات الأخرى. فالناس فى الشارع وخاصة الشباب يتحدثون لغة تختلف عن لغة التدريس فى جامعات أكسفورد والسربون. لكن هذه مفاعلة فاضحة هدفها تبرير حالة الشيزوفرينيا التى نعيشها كمعرب، وتمييع المشكلة وكأن كل شعوب العالم تعاني منها.

أما الواقع فهو أن لغة التخاطب الدارجة فى هذه البلاد تختلف عن اللغة الراقية بقدر ما تختلف لغة شباب اليوم فى مصر عن اللغة العامية التى يتحدث بها أفراد الأسرة فى المنزل أو الموظفون فى الوزارات وأماكن العمل. وهناك مفردات يستعملها الشباب لا يفهمها الكبار وتبتعد لغتهم إلى حد ما عن اللغة العامية المستخدمة فى المدن المصرية الكبرى منذ عشرين أو ثلاثين عاماً.

والأقرب للمنطق أن نقارن ما هو قابل للمقارنة، لا أن نقارن أى شئ بأى شئ. لكى نثبت ما نحن راغبين فى إثباته. ولنأخذ مثلاً بسيطاً نهديه للذين يفتون بأن مشكلة الانفصام اللغوى موجودة فى

العالم كله مثلما هي موجودة في العالم العربي. فإذا ذهب فرنسي مثلا إلى أحد المحال وطلب من البائع شراء حاجياته واستخدم في ذلك اللغة التي تكتب بها صحيفة لوموند أو حتى التي يُدرس بها في السوربون، فإن البائع لن يرى في ذلك أية غرابة. وسيفهم هذا البائع أيا كانت درجة ثقافته كل كلمة يقولها المشتري. كل ما في الأمر أن لبائع سيدرك أنه أمام رجل على قدر عال من التعليم والثقافة.

أما إذا ذهب مواطن في مصر أو في اليمن أو المغرب وتوجه إلى البائع قائلا حرفيا : «أعطني يا بنى رغيفا من الخبز، وزد عليه قطعة من الجبن»، فسيكون أضحوكة كل من يسمعه وربما لا يفهم البائع ما أراد أصلا.

فهناك إذا في هذه الحالة ثلاث لغات على الأقل يستخدمها الناس في كل بلد عربي. اللغة العامية المستخدمة في الحياة اليومية. ولغة مستحدثة وخاصة في أوساط الشباب، واللغة الفصحى. وحتى هذه الأخيرة يمكن تقسيمها إلى لغة الصحافة والإعلام السهلة نسبيا ثم لغة الكتب والمتخصصين التي لا زالت تتمسك بالتقديم.

\* \* \*

ومن يريد الدخول في تفاصيل أكثر تعقيدا فإن سكان بعض المناطق في العالم العربي لهم أيضا لهجات خاصة وأحيانا لغات خاصة. فالصعيدى مثلا في مصر يتحدث اللهجة السائدة في جنوب مصر ويفهم العامية القاهرية. والحبلى في سوريا يتحدث اللهجة تختلف عن الدمشقى وهكذا.

لكن هذه الظاهرة موجودة في غالبية بلاد العالم، فهناك في فرنسا لغات خاصة مثل البروفنسال والباسك لا يفهمها إلا سكان هذه المناطق. ومع ذلك فإن كل الفرنسيين يفهمون لغة أهل منطقة باريس ويتحدثون بها فيما بينهم. وكل هذا يختلف اختلافا جذريا عن الفارق بين الفصحى واللهجات في العالم العربي.

\* \* \*

وتطرح الشيزوفرينيا اللغوية التي يعاني منها العرب سؤالاً صعباً على النفس لكنه جدير بالطرح حتى وإن كنا مقتنعين بأن إجابته بالنفى، وهو: هل تصبح اللغة العربية الفصحى مثل اللاتينية ؟ أي لغة تفرخ لغات أخرى من باطنها لكنها لا تستخدم في حد ذاتها وتحول إلى لغة ميتة ؟

وفي كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» يحذر الدكتور طه حسين بشدة من هذا الاحتمال حيث يقول في الفصل ٢٧ من طبعة دار المعارف الصادرة عام ١٩٩٦: «أنا نذير للذين يقاومون هذا الإصلاح بخطر منكر ( - ) وهو أن اللغة العربية الفصحى إذا لم تنل علومها بالإصلاح، صائرة. سواء أردنا أم لم نرد. إلى أن تصبح لغة دينية ليس غير، يحسنها أو لا يحسنها رجال الدين وحدهم ويعجز عن فهمها وذوقها فضلاً عن اصطناعها واستعمالها غير هؤلاء السادة من الناس».

وفي الواقع أن هدفي من وضع هذا الكتاب هو تفادي ما ينذر به عميد الأدب العربي الذي أبصر ما لا يراه المبصرون بأعينهم، وصدق نزار قباني في رثائه عندما أكد هذا المعنى قائلاً :

## إرم نظارتیک ما أنت أعمى إنما نحن جوقة العميان

\* \* \*

واللاتينية كانت أهم لغات العالم فى عصر من العصور وتصور أهلها أن العالم سيظل يتحدث بها إلى أبد الأبدین. وكانوا يطلقون على روما اسم «المدينة الخالدة». لكن جحافل القبائل القادمة من شرق وشمال أوروبا والتي اجتاحت أراضى الأمبراطورية الرومانية الغربية لم تقض على نفوذ روما القديمة فحسب. فبعد بضعة قرون لم يعد لللاتينية وجود وظهّرت لغات هى مزيج بين هذه اللغة واللغات التي كانت تتحدث بها القبائل مثل الفرنجة والقوط والفندال وغيرهم. وتبلورت فى بطن شديد اللغات التي نعرفها اليوم مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية وغيرها.

ومع ذلك فإنه لا تخفى على أى إنسان الفروق الجوهرية بين العربية واللاتينية. فالعربية نزل بها القرآن وكانت لغة تراث عظيم لا يقبل أى عاقل أن يضيع هباء لأى سبب من الأسباب. لكن واقع الحياة كثيرا ما يكون أقوى من إرادة الإنسان خاصة إن لم يعمل الإنسان على تحقيق إرادته بعزيمة صلبة وعمل دؤوب. ولو قال أنصار محمد ﷺ فى بداية الدعوة لبعضهم البعض: «لا تخشوا شيئا فهذا دين الله، وهو قادر على حمايته»، ثم توقفوا عن أى جهود لنشر الدعوة ووقفوا موقفا سلبيا، فالله وحده يعلم ما كان سيحدث لديننا.

اليوم أيضا، علينا ألا نكتفى بالقول بأن العربية هى لغة القرآن، وبالتالي فلا يمكن أن تمس وسيظل العرب يتحدثون بها إلى الأبد.



فهذا لا يكفى، وإنما علينا أن نعمل جاهدين على تطويرها حتى تلائم احتياجاتنا وتظل لغتنا التى نقاخر بها الآخرين.

وكما قلت فى المقدمة فإن اللهجات كانت موحودة منذ ظهور اللغة العربية فى الجزيرة. وعندما انتصرت لغة قريش بفضل نزول القرآن الكريم بها انزوت اللغات واللهجات الأخرى كلفة أدب وكتابة، لكنها ظلت متواجدة بصورة أو بأخرى فى اللغات المستخدمة فى الكلام.

وأهم ما يجب أن نعرفه أن اللغة العربية الراقية التى نزل بها القرآن وكتبت بها روائع الأدب العربى الكلاسيكى لم تستخدم كما هى كلفة للكلام فى أى عصر من العصور. فحتى فى زمن الرسول ﷺ كان عامة الناس يتحدثون لغة تمتزج فيها اللغة الراقية باللهجات المسيطرة على اللسان العربى.

وكلما ابتعدنا زمنياً عن اللحظة الفاصلة وهى نزول القرآن، كلما ابتعد الناس عن الفصحى لحساب اللهجات فى كل مكان بالعالم العربى. أى أن الناس فى العصر الإسلامى بالجزيرة العربية كانوا يتحدثون لغة أقرب إلى الفصحى منهم فى العصر الأموى. وكانوا أقرب إلى الفصحى فى الأموى من العباسى وهكذا إلى يومنا هذا الذى أصبحت فيه الفجوة واسعة بالقدر الذى يلمسه أى مراقب لا تحركه العواطف وحدها.

واللافت للانتباه أن اللهجات قد انتصرت كلفة للتعامل اليومى حتى فى مكة المكرمة وهى مهد الرسول ﷺ ومنبع اللغة العربية وبؤرة الفصاحة والبيان.

وهناك سؤال يقفز تلقائيا إلى الذهن : لماذا هجر الإنسان لغته في كل زمان ومكان العربية الفصحى ولجأ إلى لغة أخرى لتعامل اليومي والإعراب عما في صدره. لماذا لا يذهب العاشق إلى محبوبته ويقول لها حرفيا : «أنا هائم في غرامك» أو «وجهك لصبوح يهز كياني»؟ ولو قال لها مثل هذه العبارات، فالأرجح أن لعلاقة بينهما ستنتهي بهذا الغزل ليلغ. فلماذا يفضل دائما العاشق عبارات غزل مستقاة من اللهجة الدارجة التي تعبر أفضل تبير عما في نفسه ؟

من الممكن أن نجد تبريرات فلسفية ونفسانية عميقة لذلك. نحن أرى سببا بسيطا يقفز إلى العقل على الفور: إن الفصحى - بتكلمها الحالي - ليست لغة صالحة للتعامل اليومي نظرا لصعوبتها وتعقيداتها.



وكان لانتشار العربية خارج الجزيرة مع الفتح الإسلامي آثار حاسمة على لغتنا. ومع الزحف العربي في كل اتجاه شمالا وشرقا وغربا بعد وفاة الرسول وجهت العربية ضربة قاضية إلى كل اللغات التي كانت متداولة في المنطقة وأهمها الآرامية وهي لغة المسيح عليه السلام والقيبطية وهي لغة أهل مصر قبل الفتح. وإلى اليوم فمن الصعب أن نجيب عن السؤال الآتي: لماذا سيطرت العربية على لسان الناس في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا لكنها لم تستطع اقتلاع لغات مثل الفارسية والتركية ولغات شعوب أخرى كثيرة في آسيا ؟

وهناك نظريتان أساسيتان فى هذه القضية. تقول الأولى إن العربية ارتبطت بالتعريب أى بانتقال العناصر العرقية العربية وامتزاجها بالشعوب المفتوحة. وبطبيعة الحال فقد كانت الهجرة العربية إلى البلاد الأقرب جغرافيا. لذلك فإذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامى اليوم نجد نواة أساسية هى العالم العربى، تحيط بها بقعة أكبر كثيرا هى العالم الإسلامى. لكن هذا العامل لم يكن حاسما نظرا لأن عدد العرب الذين خرجوا من الجزيرة للفتح والإقامة فى الأمصار لا يتجاوز ٢٠٠ ألف شخص وفقا الموسوعة «يونيفرساليس». وهذا الرقم تشرىبى كما تقول الموسوعة لكنه ليس بعيدا جدا عن الواقع. ولاشك أن هؤلاء قد تاهوا وسعد عشرات الملايين من سكان الأقطار المفتوحة.

أما النظرية الثانية فتقوم على أساس لغوى بحث. فهى تقول إن العربية انتصرت فى البلاد التى كانت تتحدث لغات سامية-حامية وهى نفس الأسرة اللغوية العربية. فاستساغت شعوب هذه البلاد مثل مصر والشام اللغة الواحدة مع الفتح لأن لها نفس جذور اللغة التى يستخدمونها.

وربما لعبت عوامل كثيرة دورا فى انتصار العربية على لغات البلاد المفتوحة. لكن المهم فى هذا البحث هو أن الفصحى لم تنجح فى فرض نفسها كلفة تعامل وانتشرت اللهجات وفقا للعادات اللغوية فى كل بقعة من بقاع العالم العربى.

وقد أطلق الجاحظ على اللهجات الجديدة تعبير: «لغة المولدين والبلديين». والمولدون هم الأبناء المخلطون أى الذين لهم أم أو أب غير عربى. وكان غالبية المولدين من أب عربى وأم «أعجمية» أى غير عربية. ويبدو أن العرب قد انبهروا بالفتيات الأجنبية من فارس ومن بلاد الروم حيث كانت هاته الفتيات، وخاصة الروميات منهن، تتميزن بالشعور والعيون الملونة وهو ما لم يشهده غالبية العرب من قبل. ومع طول مدة الفتح والحروب كثر الزواج من غير العربيات أو اتخاذ جاريات تلدن الأبناء. وقد لعب المولدون دورا هاما فى تاريخ الأمة العربية الإسلامية وخاصة فى العصر العباسى لكن دورهم فى تطوير أو «تشويه» العربية لم يدرس بما فيه الكفاية إلى اليوم.

ومع الوقت أصبح اللحن والخطأ فى اللغة العربية هما القاعدة بالنسبة لعامة الناس. ويروى ابن قتيبة أن أعرابيا دخل السوق فسمع الناس يخطئون فى العربية ويلحنون فقال: سبحان الله! يلحنون ويريحون، ونحن لا نلحن ولا تريح!.

ويؤكد أحمد أمين فى ضحى الإسلام أن اللحن كان فاشيا حتى فى العلماء. فقد لحن كما يقول مستندا إلى البيان والتبيين والعقد الفريد وطبقات الأدباء كل من الإمام أبى حنيفة وعمرو بن عبيد وبشر الميسى. وإذا كان هؤلاء العلماء الأجلاء عاجزين عن التحدث بلغة عربية سليمة مائة فى المائة فما بالنا بعامة الناس فى عصرهم. وما بالنا بعامة الناس فى عصرنا الحالى، الذى لم يعد فيه الإنسان قادرا على ملاحقة إيقاع الحياة وكم المعلومات التى

يضطر إلى استيعابها في كل لحظة حتى يستطيع الالتفات إلى سلامة اللغة التي ينطق بها.

ومن أبرز الأمثلة التي تضرب في فساد اللغة كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس. وهو بالفعل يستخدم لغة ركيكة في نظر كتاب التاريخ الفكري والأدبي حيث يستخدم كلمات وتراكيب عامية فيقول مثلاً واصفاً أحد الأمراء: «وأما عسكره فكانوا جيعانين العين، نفسهم قذرة، وعندهم عفاشة في أنفسهم».

وباختصار وحتى في العصور الذهبية للدولة الإسلامية كان الناس يخطئون في العربية عندما يتحدثون بها كما يخطئ فيها العرب في القرن الحادي والعشرين. وكانوا يؤثرن عليها اللهجات التي سيطرت على اللسان العربي تماماً مع الابتعاد الزمني عن عصر النبوة ونزول القرآن.

\* \* \*

وكان من الطبيعي أن تؤدي حالة الشيزوفرينيا اللغوية إلى إشاعة حالة من القلق بين المثقفين المصريين والعرب وخاصة في العصر الحديث. وكان من الطبيعي أن ينكبوا على التفكير في وسائل الخروج من هذه الحالة الشاذة. وقد أدى ذلك إلى مجموعة من الاقتراحات والاجتهادات للعديد من عمالقة الفكر العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

ومن أخطر هذه المقترحات التي أقول بوضوح إنني لا أوافق عليها هي هجر الفصحى بالكامل واستخدام اللهجات كلفة تعامل رسمية في الدول الناطقة بالعربية.

وقد بدأت فكرة تبني العامية تأخذ طريقها إلى العقل العربي في نهايات القرن التاسع عشر. ونظرا لرفض العربي فطريا لهذه الفكرة لأسباب دينية مفهومة، فقد كان أول من طرح الفكرة من المستشرقين. وظهرت كتب تروج لاستخدام العامية بديلة عن الفصحى منها «قواعد اللغة العربية العامية في مصر» للمستشرق الألماني فلهم سبيتا عام ١٨٨٠ و«العربية المحلية في مصر» للإنجليزى سلوين ولور عام ١٩٠١.

وفي عام ١٨٩٢ نشر الإنجليزى وليام ولكوكس بمجلة الأزهر (ولا أدري إن كان لها علاقة بالأزهر الشريف)، مقالا بعنوان «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟» يدعو فيها إلى نبذ الفصحى واللجوء إلى العامية لتحرير الطبقات الإبداعية عند المصريين. وقام ولكوكس عام ١٩٢٥ بترجمة الإنجيل إلى العامية المصرية تأكيداً لرأيه في أهمية اللجوء إلى اللهجة الدارجة ونبذ الفصحى.

وأكاد أسمع من يقول: إن رأى هؤلاء المستشرقين دليل على بطلان الدعوة إلى تبني الفصحى. فهؤلاء أعداء الإسلام والعرب ولا يدخرون وسعاً لتقويض أركان ديننا وثقافتنا، فكيف نستمع إلى من يضمرون لنا الحقد والكراهية ...

ولو افترضنا صحة هذا الكلام، فإنه لا ينبغي مع ذلك أن نأخذ آراء الأجانب والمستشرقين باستخفاف لمجرد الشك في مقاصدهم. فهؤلاء المستشرقون لا يتحدثون من فراغ وإنما من منطلق إعراض

كل الشعوب العربية بلا استثناء واحد عن استخدام الفصحى كلفة للتعامل فيما بينها. وعلينا أن نرد على حججهم بقوة المنطق والعقل وليس بالمواقف وتوجيه الاتهامات.

فهناك بعض من فطاحل الفكر العربي تبناهم الآخرون أفكارا مشابهة. وكان أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد من أوائل المصريين الذين روجوا لفكرة استخدام العامية وإن كان قد أعاد النظر في موقفه وتخلّى عن هذه الدعوة فيما بعد. كما كان مشروع عبد العزيز فهمي الذي دعا من بين ما دعا إلى استخدام الحروف اللاتينية للغة العربية قد أثار موجة اعتراض عارمة من قبل كافة الفئات.

وفي لبنان تحمس لهذه الفكرة سعيد عقل وأنيس فريحة. وكان قاسم أمين وطله حسين وأحمد أمين وأمين الخولي من بين أشد الداعين إلى تيسير اللغة العربية وتبسيط قواعدها. وكل هؤلاء لا يشك في حسن نواياهم تجاه لغتنا وتراثنا.

ومن أشهر من دعوا إلى تبني العامية بديلا عن الفصحى بحجج عنيفة صدمت الكثيرين كان سلامة موسى. وقد ساند أيضا استخدام الحروف اللاتينية واعتبر ذلك «وثبة نحو المستقبل».

ويقول سلامة موسى عن الفصحى: «ورثناها من بدو والجاهلية في عصر الناقة، ويراد لنا أن نتعامل بها في عصر الطائرة».

وفي رأيي أن سلامة موسى قد انطلق من فرضية صحيحة وهي أن اللغة العربية كما ورثناها لم تعد تلائم العصر. لكن النتيجة التي

استخلصها من هذه الفرضية الصحيحة جاءت خاصة، فهو يستنتج من عدم مواءمة اللغة لمتطلبات العصر أن نستبدلها بأخرى هي العامية. لكن النتيجة الأكثر منطقية هي أنه أصبح من الضروري تطوير اللغة بحيث تناسب أسلوب تفكير واحتياجات إنسان القرن الحادى والعشرين.

والوسيلة الوحيدة لذلك هو الإسراع بالاتفاق على سبل تطوير اللغة بإرادة عربية مشتركة. ولن يتأتى ذلك إلا بوعى المثقفين والقائمين على أمور الثقافة فى العالم العربى بأن الفصحى أصبحت مهددة فعلا. وأنه بعد عدة أجيال قد لا نجد من يعرف لغة سيويه إلا قلة من الدارسين والمتخصصين. فالعامية تعبر عن احتياجات الإنسان العربى للتفاهم أفضل من الفصحى. ولهذا هجر اللغة الصعبة إلى الأسلوب الأسهل فى التعامل.

والاتجاه الغالب لتناول قضية الشيزو فريديا اللغوية العربية هي قبولها كما هي وكأنها قدر مكتوب علينا ولا فكناك منه فى المستقبل. لكن العقل يختم علينا مراجعة هذا الموقف البراجماتى المستسلم للواقع.

من المؤكد أنه ستكون هناك دائما فجوة بين لغة الكلام اليومية ولغة الكتابة. وهى حقيقة موجودة فى كل بلاد العالم. لكن واجبنا تجاه الأجيال القادمة هو توضيق هذه الفجوة بأكبر قدر ممكن. ومن الواضح أن هذا هو الاتجاه الذى فرضته طبيعة الأمور وخاصة منذ ظهور الصحافة فى العالم العربى.



وكما قلت فإن ما يعرقل الاعتراف بهذا التطور الطبيعي هو الربط المصطنع بين اللغة والدين وتخويف البعض بأن المساس باللغة هو مساس بالدين ذاته. وهو كلام بعيد جدا عن الحقيقة كما حاولت أن أثبت في هذا الكتاب.

\*\*\*

وقد لعبت الصحافة دورا محوريا في إيجاد لغة مبسطة تفهمها شرائح متعددة من أبناء الشعب العربي. ويجمع الكثير من المثقفين ومحبي العربية أن الصحافة فتحت الباب أمام الحل الأمثل لمشكلة الشيزوفرنيا التي تواجه كل عربي قادر على القراءة والكتابة.

وإن كانت جهود الصحافة في تبسيط اللغة لم تسلم من انتقاد بعض فطاحل الفكر العربي. وقد عبر حافظ إبراهيم عن هذا الرأي عندما قال:

**أرى كل يوم بالجراند مزلقا من القبر يدنيني بغير أناة**

وعلى الرغم من وجهة نظر شاعر النيل، إلا أن التقریب بين الفصحى واللهجات هي السبيل الوحيد لإيجاد تطوير منطقي ومقبول من الجميع للغة الضاد.

وأيما كان موقفنا من هذا الوضع اللغوي فإن حالة الشيزوفرنيا التي نعيشها معرقة للتقدم ومعطلة لحفاقات العقل العربي. والعرب في هذا المجال هم حالة لغوية فريدة ووحيدة في عالم اليوم. فإذا كان لا بد أن نتفرد بشيء، فالأفضل أن نتفرد بما هو نافع ومتميز. وليس بما هو ضار ومعرقل.

\*\*\*

## غاية اللغة

الأصل في اللغة أنها وسيلة للتعبير عن النفس والتفاهم مع الآخرين. وهناك نظريات متناقضة حول نشأة اللغة في الأطوار الأولى من الإنسانية يختلف حولها العلماء. لكن ما لا خلاف عليه هو أن الإنسان في مراحل تطوره الأولى استخدم أصواتا يرمز بها إلى معان حتى يفهمه الآخرون. وأر الحاجة إلى التفاهم هي التي وجدت الكلام. وظلت الغاية من اللغة في مختلف الحضارات هي التواصل والاتصال بين أبناء البشرية.

لكنه من الواضح أن المجتمعات العربية تشد عن هذه القاعدة. فاللغة عندنا هي غاية تُشد في حد ذاتها. هي تستخدم بالطبع للتفاهم والتعامل، لكن لها عندنا هدف آخر نتميز به عن غيرنا: فاعربى يطرب وينتشي من الكلمات سواء في الشعر أو في النثر لدرجة جعلت استخدام التعبيرات والتراكيب الجديدة عليه غاية تفوق في أهميتها الغاية الأساسية من اللغة.

وفى قصور الخلفاء والأمراء كان الشعراء والعلماء يتسابقون لاستخراج كلمات ومعان مبتدعة ويتفننون فى اللعب بالألفاظ من أجل إرضاء القادرين على منح العطايا. وكان الخلفاء وأولى الأمر يصلون إلى درجة من الانتشاء باللغة تجعلهم يقدحون على الشعراء بأموال تفوق ما يصرف فى أهداف أخرى مفيدة للمجتمع. وكان الزخرف والتزيين الكلامى وإيقاع الألفاظ ورنينها وطنينها هى حيثيات البلاغة التى يتيه بها العربى.

فالعربى عاشق للغة ومتيم بها لذاتها وليس لمجرد نقل المعلومات والتفاهم مع الآخرين. ونستخلص من هذا أن مفهوم اللغة لدى العرب يختلف عنه فى الحضارات الأخرى. فهى وسيلة بالنسبة للآخرين وهى غاية بالنسبة لنا ثم وسيلة بالدرجة الثانية.

ومنذ بداية القرن العشرين بدأ العلماء يدركون أن اللغة تؤثر فى عقل المجتمعات وفى سلوكيات الأفراد. وتعتبر نظرية «سابير - وورف» أول دراسة تربط بصورة مباشرة بين اللغة وتشكيل عقل الإنسان. وظهرت بعد ذلك دراسات كثيرة لم تصل بعد إلى مستوى مطمئن تماما. لكنها تدل كلها على أن هناك صفات عامة للمجتمعات تتصل بقالب اللغة وتركيبها وروحها. واللغة تعبر بصدق عن المجتمع لكنها تؤثر فيه بالتوارث من جيل إلى جيل. فالعلاقة بين العقل واللغة هى علاقة تبادلية. فاللغة تعبر عن روح المجتمع بنفس القدر الذى تؤثر فيه.

وإذا أخذنا الإنجليزية مثلا يتضح لنا كم أنها تمكس الروح العملية التى تميز الأمريكيين والإنجليز وسهولة الحياة وغياب

الاعتقاد في ثقافتهم. والألمانية مرآة للدقة والانضباط وهما أبرز سمات الشعب الألماني عبر تاريخه. أما الفرنسية فهي تتصف بالوضوح والسلاسة. وقد أفرزت هذه الثقافة وهذه اللغة الفكر الديكارتي العقلاني القائم على منطق محكم وواضح المعالم.

ومنذ نحو ألف ومائتي عام، تبته رجل ذو بصيرة نافذة، هو الجاحظ لهذه الفروق بإحدى رسائله في «البيان والتبيين» فيقول: «إن الحكمة وقعت على ثلاث، عقل الإفرنج، وأيدى أهل الصين، ولسان العرب».

وفي كتاب «تاريخ العرب» يعزز فيليب حتى هذه الفكرة حيث يقول: والعرب لم يبدعوا أو ينشئوا فناً عظيماً خاصاً بهم من الفنون المعروفة. ولكنهم عبروا عن الغريزة الفنية بصورة واحدة هي: الكلام. فإن فآخر الإغريق بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت هندسة البناء. فالعربي يرى قصيدته أفضل ما يعبر عن خلجاته الداخلية.

ويبدو أننا قنعنا بهذه القسمة الجائرة التي جعلنا بارعين في الكلام وليس في أمور العقل والقدرة على العمل.

\*\*\*

وإذا كانت اللغة تلعب دوراً حاسماً في وجدان كل شعوب العالم. فإن أثر اللغة على المجتمع العربي أكبر كثيراً من أي تكتل ثقافي آخر. فاللغة بالنسبة للعربي هي التي نزل بها القرآن وهي لغة الأحاديث الشريفة وهي لغة التراث الأدبي العظيم الذي تركته لنا أجيال

متعاقبة من المبدعين فى كل مجال من امريء القيس إلى نجيب محفوظ. وفوق كل هذا فهى كما قلنا بمثابة غاية تشدد لحد ذاتها.

\* \* \*

وسنسمى فى هذا الفصل لاستعراض أبرز الآثار الناتجة عن اللغة والمؤثرة فى العقل العربى. ومن السذاجة أن نتصور أن اللغة تشكل العقل بطريقة آلية وأن كل سمات العقل العربى التى سنطرحها فى هذا الفصل هى نتيجة للغة وحدها. فهناك بالتأكيد عوامل أخرى ثقافية واقتصادية وتاريخية وبيئية وغير ذلك أثرت فى تكوين العقل العربى. لكن لغة الضاد تلعب دورا هائلا فى تشكيل هذا العقل، وهى كالجينات التى تؤهل الإنسان لصفات معينة ثم تتفاعل مع ظروف الطبيعة والحياة لتخلق شخصية الفرد. فاللغة تحدد ملامح اتجاهات الشخصية العامة لكنها تنعكس بعد هذا بطريقة متفردة على كل شخص.

وكما أن «الفكر القبلى» و«ثقافة الأذن» و«حضارة اليقين» كانت كلها فى البداية عناصر إيجابية فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ثم انقلبت إلى عوامل سلبية مع مرور الزمن، كما أثبت فى كتاب «الداء العربى»، فإن اللغة ينطبق عليها هى الأخرى نفس التحليل.

فقد لعبت العربية دورا حاسما فى انطلاق العقل العربى من خلال النص المؤسس لحضارة العرب وهو القرآن الكريم. وجاءت بعد ذلك الإبداعات الشعرية والنثرية فى العصر الإسلامى ثم الأموى فالعباسى.

وكانت لغتنا الجميلة تسهم فى رقى المشاعر وسمو النفوس  
وتساعد على الاستمتاع بكل ملذات الحياة الروحية والحسية. ولا  
شك أن اللغة كانت ركنا من أهم أركان الحياة فى قصور الخلفاء  
والأمراء وعنصرا من عناصر الارتقاء والشموخ النفسى. وكتاب  
الأغمانى يدل على مكانة اللغة فى الحياة العربية فى عصور  
الازدهار. ومع تطور الزمن ورفض العرب أى تطوير للفتهم يتواءم  
مع التقدم الطبيعى للمجتمعات أخذت اللغة تتحول تدريجيا إلى  
عامل من عوامل الجمود المعوقة للتقدم.

\*\*\*

ومن أبرز الانعكاسات السلبية للغة جنوح العقل العربى إلى  
الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر. وقد تنبه المتنبى لهذا العيب  
الخطير منذ أكثر من ألف عام بفضل بصيرته النافذة وكأنه  
يستشرف آفاق المستقبل ولا يكتفى برصد حاضره. وقد شاع قوله  
فى الشطر الثانى لأحد أبيات قصيدة يهجو فيها كافور : «يا أمة  
ضحكت من جهلها الأمم».

لكن الشطر الأول من هذا البيت أبلغ كثيرا فى رأى وأكثر دلالة  
على انحياز العقل العربى إلى المظهر على حساب الجوهر، ويقول  
فيه المتنبى : «أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ؟».

فقد لاحظ أبو الطيب أن الناس فى عصره يلتزمون بإحفاء  
شواربهم وإطلاق لحاهم، وهى سنة معروفة، ثم بعد ذلك يفعلون ما  
يشاءون مما يتناقض مع جوهر الدين وينافى تعاليمه الأساسية.

ومن هذه الملاحظة طرح سؤاله العبقري : هل الغاية من الدين الذى نزل للإنسان فى الأرض هو المظهر الذى يبدو عليه الإنسان أم هو الجوهر الكامن فى قلبه ويترجم بمواقفه من الآخرين ؟

وكان المتنبى يعيش بيننا الآن ويرى البعض يختزل ديننا العظيم فى بعض المظاهر غير الجوهرية وكأنها لب الدين وأساسه الركين. نرى البعض يختزل الدين الإسلامى فى الحجاب بالنسبة للمرأة واللحية بالنسبة للرجل. أما أن يلتزم الناس بالأمانة فى المعاملة والبعد عن الفحشاء وعن الرشوة والسرقة؛ أما عن مساعدة المحتاج وأداء العمل بضمير متيقظ والسعى لخدمة الناس وإسماعهم، فكل هذه أمور ثانوية فى نظرهم ولا ترقى إلى مستوى المظاهر.

وهناك مقولة أن العربى يهتم بالكلمات أكثر من المعانى وبالمعانى أكثر من الأفعال. والأمثال الشعبية تعكس هذا النزوع إلى تفضيل الشكل مثل «لا قينى ولا تفدينى» و«لبس البوصة تبقى عروسة» و«الصيت ولا الفنى». وهذه الأمثال، وإن كان فيها الكثير من الحكمة إلا أنها ترمز بوضوح إلى العقلية العربية التى تولى الشكل أهمية قصوى.

\* \* \*

الخاصية الأخرى الواضحة فى العقل العربى والتى تنعكس فى اللغة ثم تعود فتؤثر على الإنسان العربى هى النزعة إلى المبالغة. ونلاحظ أن البلاغة والمبالغة مشتقان من نفس المصدر، مما يعطى انطبعا بأن المبالغة هى جزء لا يتجزأ من البلاغة، التى تعد من أنفس المزايا وأقيمها عند العرب. وبحكم تركيبها فإن اللغة العربية

تسوق المتحدث أو الكاتب وتدفعه دفعا إلى أن يضخم المعنى ويسعى إلى تضخيمه والتنفخ فيه حتى يؤثر على سامعه.

وإطلاق اسم لغة الضاد على العربية لم يأت من قبيل الصدفة، لكنه يعكس هذه النزعة، حيث أن العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي تحوى حرف الضاد. وهذا الحرف هو تضخيم وتضخيم لحرف الدال الذى تكتفى به كل لغات العالم الأخرى.

ولا تكاد قصيدة أو عمل إبداعى عربى منذ العصر الجاهلى يخلو من المبالغة والتهميل. ولعل من أشهر الأبيات التى وصلت بملكة المبالغة إلى حد الكاريكاتير هو بيت عمرو بن كلثوم فى معلقته الشهيرة التى مطلعها:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا      ولا تبقى خمور الأندرينا  
ويقول البيت :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع      تخزله الجبابر ساجديننا

ويروى فى بعض المصادر: «إذا بلغ الفطام لنا صبي».

وهناك أبيات فى هذه القصيدة المعلقة تثير الضحك فعلا. فهو يقول مثلاً:

ملأنا البر حتى ضاق عنا      ونحن البحر نهله سفيننا

أما نحن، فتعرف أن العرب لم يملأوا واحدا فى المائة من أرض الجزيرة العربية، كما لم يعرف لهم أية أساطيل.. صغيرة أو كبيرة. فما باننا أن تضيق بهم الأرض، وأن يكون لهم أسطول يملأ البحر سفنا.



وظلت المبالغة صفة متوارثة من جيل إلى جيل وكأنها سمة  
لاصقة بالعقل العربى ومرتبطة بالأسلوب واللغة وبالفصاحة ذاتها.  
واشتهرت العنتريات التى ارتفعت بالتهجيص والتهوئش إلى أعلى ما  
يمكن أن يصل إليه أسلوب لغوى.

ولنتأمل النص التالى الذى يورده ابن قتيبة فى «عيون الأخبار»  
فى «باب الحرب» : «كان لأبى حية التميمى سيف ليس بينه وبين  
الخشبة فرق. وكان يسمى (لعاب المنية) قال جاره له: أشرفت  
عليه ليلة وقد انتضاه وشمر وهو يقول: أيها المغتربنا والمجتريء  
علينا، لبئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل.  
لعاب المنية الذى سمعت به، مشهور ضربته لا تخاف نبوته..  
أخرج بالعضو عنك والا دخلت بالعقوبة عليك.. إنى والله إن أدع  
قيسا تملأ الأرض خيلا ورجلا.. ياسبحان الله.. ما أكثرها  
وأطيبها.. ثم فتح الباب، فإذا كلب قد خرج. فقال: الحمد لله  
الذى مسحك كلبا. وكفانى حربا..»

وهذا النص الذى تتضح منه السخرية مثال كاريكاتيرى للكلمة  
التي تفقد معناها بسبب العنترية والتهويل وينطبق عليه المثل  
القائل: «الجنابة حارة.. والميت كلب».

\* \* \*

واستمرت هذه النزعة إلى المبالغة ونقلت عدواها إلى رجال  
السياسة الذين اعتادوا على إطلاق التصريحات النارية التى يعلمون  
سلفا أنهم غير قادرين على تنفيذها.

ولعل أشهر مثال على ذلك هو تصريح أحد القادة الفلسطينيين قبل نكسة ١٩٦٧ قال فيه بأننا سنلقى إسرائيل في البحر. وقد أضر هذا التصريح بالقضية الفلسطينية ضررا بالغا، ولم يدرك العالم آنذاك أنه مجرد نتاج لثقافة المبالغة ولغة التهويل، ولم يكن يتم عن نوايا حقيقية بقتل كل الإسرائيليين وإلقتهم في البحر. وقد أخذ العالم أجمع وخاصة العالم الغربي هذا التصريح بمعناه الحرفي نظرا لأن غالبية ثقافات العالم لا تميل مثلنا إلى الإفراط في المبالغة.

وكان صدام حسين وريثا وفييا لأسلوب التهويل الذي يتأثر بتركيبة اللغة العربية، وبلغ فيه ما لم يبلغه زعيم عربي من قبل ولا من بعد. وقد قال في تصريح عنترى في عام ١٩٩٠ أنه في حالة الاعتداء على العراق فإنه «سيحرق نصف إسرائيل». وقد رأينا الهوة السحيقة بين تصريحات صدام البطولية وأفعاله الفاشوشية.

ولا تخلو الصحف العربية من أساليب المبالغة الفجة والتي تعتبر في نظر كتابها والعديد من قرائها بلاغة تصل بالمعنى إلى أعلى مراتبه. فتجد مقالا ينتقد شخصا لأمر غير خطير، فيتحمس كاتبه ويقول إن فلانا يستحق أن يشنق في ميدان عام. ومع سياق الكلام «يسخن» الكاتب أكثر فيضيف أنه لا بد وأن يسجل هذا الشخص في شوارع المدينة وأن تحرق جثته ليكون عبرة لغيره.

ويبدو أن العربي يرضع مع تعلم اللغة نزعة فطرية إلى المبالغة والتوكيد. وقد أجريت دراسة على عينة من الشباب العربي والغربي فانتضح أن التصريح الذي يعتبره الغربي موقفا واضحا وتوكيدا

للمعنى، يعتبر بالنسبة للشباب العربى موقفا حياديا يحتمل التأويل، ولا يتضمن توكيدا واضحا.

ولأننى أنتمى قلبا وقالبا إلى الثقافة العربية فقد مررت بتجربة مماثلة فى بداية إقامتى بفرنسا عام ١٩٨٠. وقد صدر آنذاك تصريح البندقية الشهير الذى اعتبر موقفا أوروبا جديدا ونقله من التأييد الكامل لإسرائيل إلى موقف يتفهم الحق العربى ويقف إلى جانبه. وصدرت فى فرنسا تصريحات كثيرة فى نفس هذا الاتجاه بل تذهب إلى أبعد مدى فى اتجاه العرب. وكان الدبلوماسيون الفرنسيون الذين ألتقى بهم وكانوا مؤيدين للعرب يبدوون سعادتهم أمامى. لكنى كنت أختلف معهم لأننى أجد هذه التصريحات مائعة وغير قاطعة. وكانت تدور مناقشات حامية بيننا.

ولم أكن أفهم آنذاك أن هناك فجوة فى المفهوم اللغوى بينى وبينهم وأن المواقف فى المفهوم الغربى يتم التعبير عنها بأسلوب بعيد عن المبالغة والتوكيد، وهو الأسلوب الذى اعتدنا عليه.

\*\*\*

ومن العيوب العربية المرتبطة بالمبالغة استغلال الكلمة بإيقاعاتها وإيحاءاتها الفضفاضة بديلا عن الفعل الغائب. وقد ذكر القرآن الكريم هذا العيب المستقر فى العقل العربى منذ قديم الأزل حيث يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الصف ٢).

وقد رصد الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش هذه  
الخصال فقال في قصيدة بعنوان: «سرحان يشرب القهوة في  
الكافيتيريا» :

أفقت.. عملت نصريف فعل جديد، هل الفعل معنى بانسة  
الصوت؟ أم حركة؟

ونكتب: ض.. ط.. ق.. ص.. ع.. وتهرب منها...

ضجج الفراغ حروف نميزنا عن سوانا...

طلعا عليهم طلوع السمون.. فصاروا هباء و صاروا سدى..

سدى نحن.. هم يحزنون طفولتنا... ويصنون أسلحة من

أساطير...

أعلامهم لا تغنى.. وأعلامنا يحض الرعد...

نقصفهم بالحروف السمينة.. ض.. ط.. ص.. ق.. ع.. ثم

نقول انتصرنا..

وننقى غربا.. حراكت مطبعة للآغات.. والبوصيات..

باسمك تنتصر الأبجدية..

\* \* \*

وفي كتاب «المقتل العربي» الصادر عام ١٩٧٣. يورد المفكر  
روفايل بطي دراسة ميدانية عن الأطفال العرب يتضح منها أن  
٨١٪ من الأمهات يعترفن بقيامهن بتهديد أطفالهن بالكلمات، ثم لا  
يتبعن ذلك بالتنفيذ. ونظرا لما تحتويه العربية من كلمات رنانة

وعبارات فضفاضة فإن التهديد الكلامي يكون عادة عنيفا للغاية ومفزعاً بالنسبة للأطفال.

و تلجأ الأمهات إلى الأسلوب العربى اللغوى فى التهويل والمبالغة بأن يهددن أطفالهن بالضرب وربما بالقتل والحرق وقطع الأيدي وغير ذلك، ثم لا ينفذن هذا الوعيد بسبب الرحمة أو الشفقة وحبهن لأطفالهن. ولا شك أن التهديد والوعيد والتخويف هى عمليات تنفيس تقوم بها الأم العربية لكى لا تؤذى طفلها الحبيب، لكن المشكلة أن هذا الأسلوب يترك فى نفوس الأطفال آثارا لا تتمحى، وترسخ فى عقلهم الباطن عادة الكلام الذى يعبر عما فى داخل النفس من رغبات كامنة، لكنه لا يعبر عما ينوى الإنسان أن يقوم به من أفعال (الكلمة بديلا عن الفعل). فالكلام فى واد والواقع فى واد آخر.

وهناك مئات من الأمثلة تؤكد ميل العربى إلى استعواض الأفعال بالكلمات، والشعر العربى منهل لا ينضب لهذه الأمثلة من امرئ القيس إلى يومنا الحالى. فالشعراء الذين يتحدثون عن الفضيضة وأفعالهم تتناقض مع أبسط قواعدهم، والشعراء الذين يتحدثون عن القناعة وهم يتكاثبون على الحياة، كلهم قد ملأوا سماء الأدب فى القرون الماضية. ربما كانت أشعارهم الجميلة تشفع لهم الفجوة بين كلماتهم وأفعالهم. لكن وقع أشعارهم على النفسية العربية كان سلبيا للغاية.

وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول من الأمثلة البارزة على ما نريد أن نشيته. فقد كان حسان أفضل من يتحدث عن الحرب

والقتال والبأس، لكنه لم يرفع سيفه يوما واحدا في ساحة معركة. وفي تلك الأيام لم يكن هناك محاربون ومدنيون في الجزيرة العربية. فكل من يستطيع حمل السلاح كان يشارك في الذود عن قبيلته أو مهاجمة قبيلة أخرى. لكن الرسول كان يعفى حسابا من القتال لعلمه بأنه ليس قادرا عليه.

وتروى صفية بنت عبد المطلب وهي بنت عم الرسول وقت غزوة الخندق في كتاب «الأغاني»: «وكان حسان معنا مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من اليهود (..) وليس بيننا وبينه أحد يدافع عنا (..) قالت: فقلت: يا حسان (..) إنزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا..»

فما كان من صفية إلا أن هوت على رأس اليهودي بعضا فقتلته. وكان يهود بنى قريظة يساندون أعداء النبي خلال غزوة الخندق ويناصبون المسلمين العداء في ذلك الوقت كما هو معروف.

في كتاب «البخلاء» أورد الجاحظ قصة طريفة تبرر بوضوح نزعة الكلام الذي لا يعبر عن الحقيقة. فيحكى الجاحظ عن محمد بن يسير وهو شاعر بصري أن أحد الولاة بفارس استمع في أحد الأيام إلى شاعر أخذ يمدحه مدحا مفرطا فقال الوالي لكتابه: أعطه عشرة آلاف درهم ففرح الشاعر فقال الوالي للكتائب: «اجعلها عشرين ألف». فتضاعفت فرحة الشاعر. فقال الوالي: «اجعلها أربعين ألفا». وهنا طار الشاعر فرحا وقال للوالي ما معناه أنه سينصرف حتى لا يحرجه ويزيد هذا المبلغ.

ولما انصرف الشاعر أمر الوالى كاتبه بألا يعطيه شيئا. فلما أبدى السكرتير استغرابه، قال الوالى مفسرا موقفه إن الشاعر زعم أنه أحسن من القمر وأشد من الأسد وهكذا . وهو يعلم أن كل هذا غير صحيح، لكنه فرح بهذا الكلام الذى لا علاقة له بالواقع. وعندما وعد الشاعر بأربعين ألف درهم، فرح الرجل فرحة كبيرة. فكما أفرحه الشاعر بالكلام فهو أيضا قد أفرحه بالكلام.

وتذكر هذه القصة بالمثل الذى يقول: «كلام ابن عم حديث».



وتتضح الفجوة الثقافية الناجمة عن اللغة فى مفاوضات العمل والتجارة بين الأطراف العربية والأطراف الأخرى سواء من الشرق أو الغرب. والمسألة لا علاقة لها بالترجمة. فربما تحدث الجميع نفس اللغة، وربما قام المترجمون بواجبهم بأمانة. لكن دلالة الكلمات تختلف بين الطرفين. فالعربى يكره أن يقول : لا. وهو يستعيز عنها بكلمة: ربما عندما لا يريد تنفيذ شيئا. وعندما يقول نعم فهو يقصد عادة : ربما ، أو أن الأمر ممكن تنفيذه.

وقد قامت الثقافة العربية فى بدايتها على الأذن نظرا لأنها ازدهرت فى مجتمع تسيطر عليه الأمية (إنظر كتاب الداء العربى باب «ثقافة الأذن»).

وكان من أهم آثار ذلك أن العقل العربى يقبل الحقائق عن طريق الأذن. فاليقين بالنسبة له هو ما يسمعه، فى حين أن اليقين فى معظم الحضارات الأخرى. هو ما يراه الإنسان رأى العين.

ومنذ اختراع التصوير الفوتغرافي والسينما والتلفزيون تقهقر دور الأذن وزاد دور العين في المعرفة. لكن سحر اللغة العربية والمكانة التي تحظى بها في ثقافتنا تجعل المجتمعات العربية لا تزال تتمسك باليقين عن طريق الأذن والكلمات، بينما الآخرون يصلون إلى اليقين عن طريق العين والعقل.

وربما يفسر ذلك أن الشائعات تنتشر في مصر والعالم العربي بسرعة أكبر كثيرا من أى مكان آخر في العالم. فالإنسان العربي، منذ أن أفل نجم حضارتنا، ميال بفطرته إلى أن يصدق ما يسمعه دون أن يخضعه للتفكير والنقد. ويكاد الحس النقدي يكون منعدما في الشقافات العربية منذ قرون طويلة، فالعربي يثق في اللغة وبالتالي يثق فيما ينقل إليه عن طريق هذه اللغة.

\* \* \*

ومن أبرز خصائص اللغة العربية خاصية الإبداع في التعبير عن الفكرة بأسلوب غير مباشر. فالأسلوب المباشر غير محبوب في العربية ويعتبر ضعفا وركاكة في التعبير. وبرغم ما يقال بأن البلاغة في الإيجاز فإن الواقع عكس ذلك على خط مستقيم. فبراعة الشاعر والكاتب تقاس بمقدرته على اللف والدوران حول المعنى والوصول إليه من طرق ملتوية ومعقدة ربما تزيده جمالا في عيون المستمعين.

ومن المؤكد أن هذه الخاصية قد انعكست على العقل العربي وخاصة في القرون الأخيرة حيث يؤثر العربي عدم مواجهة الواقع والالتفاف حول الحقائق بقدر المستطاع خاصة تلك التي تصدم قناعاته.



ويظهر الميل الفطرى لعدم المباشرة فى أسلوب التعامل اليومى سواء فى العمل أو فى الحياة الخاصة. فعادة ما يبدأ العربى بدىاجة طويلة ومقدمات لا آخر لها قبل أن يدخل فى الموضوع الذى يريد الخوض فيه. ومع تزايد سرعة الإيقاع فى مصر ظهر تعبير جديد كرد فعل هذه الظاهرة وهو : «هات من الآخر». أى قل ما حزين بغير مقدمات.

\* \* \*

ومن أخطر الخصائص النفسية التى تلعب فيها اللغة دورا لا يستهان به هى علاقة العربى بالزمن. فقبل ظهور الإسلام لم يكن هناك أى تقويم زمنى بالأعوام وكان هم عرب الجزيرة الوحيد فى مجال الزمن هو معرفة الشهور لأسباب تتعلق بحياتهم العملية.

أما الحضارات الأخرى التى ظهرت قبل الإسلام فقد عرفت التقويم بالشهور والسنين. وقد أصدر يوليوس قيصر مرسوما بالعمل بما عرف بالتقويم الرومانى فى عام ٤٥ قبل الميلاد أى نحو ٧٠٠ عام قبل أن يشعر العرب بضرورة التقويم بالسنين. وقبل يوليوس قيصر كانت الحضارة اليونانية تعرف التقويم بالسنين. وبفضل تقويمهم نعرف الآن أن سقراط ولد عام ٤٧٠ قبل الميلاد ومات عام ٣٩٩ قبل الميلاد وكذلك أفلاطون (٤٢٨ ق.م - ٣٤٨ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٠ ق.م).

أما قصى الجد الأكبر للرسول ﷺ وأول من نزل بقريش فى مكة فلا يعرف أحد متى ولد ومتى مات ولا حتى بالتقريب. على الرغم

من أهميته الكبرى في تاريخ العرب. ونفس الأمر بالنسبة لهاشم الذي ينتمى إليه الرسول مباشرة حيث يسمى آل هاشم. ربما نعرف بالتقريب أنه عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي. والغريب أنك لا تجد من يهتم كثيرا بمعرفة متى عاش هؤلاء ومتى كانت القصص المتواترة عنهم. فكتب التراث تتحدث عنهم وكأنهم أناس من خارج الزمن. فالماضي بالنسبة للعربي هو كيان هلامي يتوه فيه ومن الصعب التفرقة بين مراحل.

وعندما ظهر نور الإسلام، كان هناك تقويمان أساسيان للأعوام. الأول هو التقويم البيزنطي، والثاني هو التقويم الساساني في بلاد فارس.

ولم يبدأ التقويم الزمني عند العرب إلا في عام ١٦ بعد الهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وقد حسم الفاروق جدلاً حول الحدث الذي يبدأ منه التقويم فجعله الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة.

قبل ذلك كان هناك بالنسبة للعربي زمن حاضر وزمن ماض. والماضي ليس له أي تحديد. وكان التحديد التقريبي الوحيد هو بعض الأحداث الهامة التي وقعت في الجزيرة وعلى رأسها عام الفيل وهو الذي حاول فيه أبرهه غزو مكة وتحطيم الكعبة المشرفة. وكانوا يقولون مثلاً قبل عام الفيل أو بعده بقليل.. وهكذا.

ومن يبحث في تصريف الأفعال بالعربية يكتشف السر في علاقة العربي بالزمن. فالأفعال العربية مبنية على الماضي

والمضارع بالنسبة للترتيب الزمنى. لكن هناك خلطاً لا حد له بين الاثنين. فالمضارع قد يستخدم للماضى والعكس صحيح. فنقول مثلاً: أكلت الآن كذا.. وأكلت فعل ماضى. ويقول والد العروس: «زوجتك ابنتى» مع أن «زوجتك» فعل ماضى لكنه يعنى هنا الحاضر والمستقبل. كما يقال: غداً نصلى الجمعة. و«نصلى» فعل مضارع لكن المتصود به هنا المستقبل.

كما أنه لا يمكن ترتيب الأزمنة بوضوح من خلال الأفعال فى الماضى وتحديد وقوع فعل قبل أو بعد فعل آخر.

وبالنسبة لعظمائنا الذين نعرف العصور التى عاشوا فيها بدقة، فإن الغالبية العظمى للعرب تعرفهم إسماً لكنها لا تهتم بمعرفة الأزمنة التى عاشوا فيها. فكم مصرى يعرف متى عاش صلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس أو طومان باي أو المقرئى ؟ من يعرف بالتحديد تاريخ ميلاد أو وفاة سعد زغلول أو مصطفى كامل أو طه حسين ؟

الغالبية الساحقة لا تعرف. بل لا تهتم أن تعرف. فقياس الزمن بالنسبة لعامة العرب رفاهية لا لزوم لها.

أما فى فرنسا فإن الغالبية تعرف بدقة تاريخ ميلاد ووفاة نابليون وهوجو وغيرهما. ويعرف الألمان متى ولد ومات بسمارك وجوته.

ومن المهم في النهاية أن نعى المناخ النفسى والاجتماعى والعقائد التى كان يؤمن بها عرب الجاهلية فى العصر التى نشأت وتبلورت فيه اللغة العربية بقواعدها ومنظوماتها التى نتعامل معها حتى الآن. كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بوجود الجن والعفاريت وكانوا مقتنعين بأنها تخالطهم فى السكن والحل والترحال والأكل والزواج وهناك أشعار جاهلية كثيرة تدل على ذلك.

وكانوا يؤمنون كذلك بالكهانة والعرافة وبشيء اسمه «الهامة» وهى طائر يشبه البومة يخرج من رأس القتيل ليطالب بالثأر وهو يصبح اسقونى.. اسقونى.

ويقول شاعر جاهلى هو ذو الإصبع المدوانى:

يا عمرو، إلا تدع شَتْمى وَمَنْقَصَتى

أضربك حتى تقول الهامة: اسقونى

وكان عرب الجاهلية يتشاءمون ويتفألون بشدة وإذا خرج أحدهم من داره فوجد شيئاً يدعو إلى التشاؤم عاد إلى الدار وأغلق على نفسه الباب ولا يخرج منها طوال اليوم.

وكانوا يؤمنون بشدة بالحسد ويعوذون أطفالهم بسن ثعلب ويسن قط خوفاً من «العين».

كما كانوا يتشاءمون من الغراب كما يقول النابغة الذبياني:

زعم العواذل أن فرقتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ إلَّاسودُ

وفى هذا المناخ المفعم بالخرافات والخزعبلات نشأت اللغة  
فمكست إلى حد بعيد تلك المنظومة العقلية الجاهلية.

وقد أطاح الإسلام بالكثير من هذه الخزعبلات وكان دين العقل  
والحكمة وهناك عشرات الأمثلة على رفض سيدنا محمد ﷺ  
للخرافات التى كانت سائدة فى عصره.

لكن المشكلة هى أن اللغة مرآة للتركيبية العقلية لمجتمع ما؛ كما  
أنها تؤثر تأثيراً حاسماً فى تشكيل عقل المجتمعات التى تستخدمها.

## ضد تحييط العربية

من يقرأ فى تاريخ الفكر العربى يتضح له أنه زاهر بمحاولات التجديد والتطوير التى وجدت دائما من يتصدى لها وينجح فى إجهاضها.

ولأنه يجرى على اللغة ما يجرى على باقى شئون الفكر فقد ظهرت فى تاريخ العرب تيارات تدعو للتجديد ورفض الجمود فى مجال اللغة. فعندما تبلورت أفكار المعتزلة فى العصر العباسى ظهر تيار ينادى بتوسيع اللغة عن طريق القياس والتوسع فى الاشتقاق. وكان رافع علم هذه المدرسة أبا على الفارسى وتلميذه ابن جنى. وكان موقفهما من اللغة كما يقول أحمد أمين فى كتاب «ظهر الإسلام» «موقف أبى حنيفة ومدرسته فى الفقه». ويضيف أن انتماء أبى على وابن جنى إلى مدرسة الاعتزال مكنتهما من التحرر وإخضاع اللغة لحكم العقل.

لكنه كالعادة فى التاريخ العربى الإسلامى فإن التيار المحافظ الذى كان يتزعمه آنذاك فى اللغة أبو سعيد السيرافى نجح فى إجهاض الأفكار الجديدة وواد محاولة التجديد.

وعبارات فضفاضة فإن التهديد الكلامي يكون عادة عنيفا للغاية ومفزعا بالنسبة للأطفال.

و تلجأ الأمهات إلى الأسلوب العربى اللغوى فى التهويل والمبالغة بأن يهددن أطفالهن بالضرب وربما بالقتل والحرق وقطع الأيدي وغير ذلك، ثم لا ينفذن هذا الوعيد بسبب الرحمة أو الشفقة وحبهن لأطفالهن. ولا شك أن التهديد والوعيد والتخويف هى عمليات تنفيس تقوم بها الأم العربية لكى لا تؤذى طفلها الحبيب. لكن المشكلة أن هذا الأسلوب يترك فى نفوس الأطفال آثارا لا تتمحى، وتترسخ فى عقلهم الباطن عادة الكلام الذى يعبر عما فى داخل النفس من رغبات كامنة، لكنه لا يعبر عما ينوى الإنسان أن يقوم به من أفعال (الكلمة بديلا عن الفعل). فالكلام فى واد والواقع فى واد آخر.

وهناك مئات من الأمثلة تؤكد ميل العربى إلى استعواض الأفعال بالكلمات. والشعر العربى منهل لا ينضب لهذه الأمثلة من امرئ القيس إلى يومنا الحالى. فالشعراء الذين يتحدثون عن الفضيحة وأفعالهم تتناقض مع أبسط قواعدهم، والشعراء الذين يتحدثون عن القناعة وهم يتكالبون على الحياة، كلهم قد ملأوا سماء الأدب فى القرون الماضية. ربما كانت أشعارهم الجميلة تشفع لهم الفجوة بين كلماتهم وأفعالهم. لكن وقع أشعارهم على النفسية العربية كان سلبيا للغاية.

وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول من الأمثلة البارزة على ما نريد أن نشبته. فقد كان حسان أفضل من يتحدث عن الحرب

ومحاولات التجديد فى اللغة والخروج من الإطار الحديدى الذى وضعه النحاة لم تتوقف فى تاريخ العرب على الرغم من وطأة حراس الماضى فى كل العصور. وخلال عصر النهضة فى القرن التاسع عشر واكب التيارات الفكرية الجديدة التى تولدت من الاحتكاك بالخارج. وعى شديد بالحاجة إلى التجديد اللغوى. فقد شعر رواد النهضة مثل الطهطاوى والكواكى وقاسم أمين بأن اللغة أصبحت عقبة للتعبير عن أفكارهم الجديدة. فقد كان الهاجس الأول لكل هؤلاء هو تطوير العقل العربى ومواءمته مع التطورات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والحياتية التى عاشتها المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

ولم يقتصر الأمر على المثقفين. فقد شعرت الدولة نفسها أن الوقت قد حان لإيجاد أداة لغوية مرنة تعكس الواقع الجديد. وفى عام ١٩٣٨ أنشأت وزارة المعارف لجنة مهمتها دراسة سبل تيسير اللغة العربية. وقد عُهد برئاسة اللجنة إلى الدكتور طه حسين. وتقدمت بنتائج دراستها للمجمع اللغوى الذى أقرها فى يناير ١٩٤٥. وقد تبنى المشروع مؤتمر المجامع اللغوية الثلاثة الذى عقد فى دمشق عام ١٩٥٦. لكن الأفكار التى طرحتها اللجنة لم تر النور بسبب اعتراض الكثيرين على مبدأ المساس باللغة. من الواضح إذا أن المهمة الصعبة التى سيواجهها العرب هى تبسيط لغة الضاد..

\* \* \*

والمبدأ الأول الذى يجب الاتفاق عليه قبل الخوض فى عملية التطوير هو ضرورة الحفاظ على اللغة الفصحى وعدم استبدال



اللهجات بها. فمن اللازم أن يكون هدف التطوير هو تخليق لغة وسط بدأت تظهر بالفعل من خلال لغة الصحافة وخاصة منذ بداية القرن العشرين. ويجب السير في هذا الاتجاه ومحاولة إيجاد صيغة تعتبر قاسما مشتركا أعظم بين كل اللهجات العربية.

وأعلم أن هذه مهمة صعبة للغاية وتستلزم عشرات السنوات من البحث والتجارب. لكنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ لغتنا الجميلة من الاندثار.

\* \* \*

وبعيد عن ذهني تماما أن أدعو إلى تطوير جذري يقضى على أسس اللغة العربية. فمثل هذا التطوير يقطعنا عن تراثنا وثقافتنا. وهو مرفوض تماما بالنسبة لى. فنحن العرب أصحاب ثقافة من أهم الثقافات الإنسانية ومن الجنون التفريط في هذه الكنوز التي تركها لنا السلف.

والمطلوب هو العمل على تطوير اللغة بجرأة لكن دون نسف الأسس التي قامت عليها، والحفاظ على الشكل والقواعد الأساسية التي وضعها السلف. وأعلم أن أى تطوير للغة يمس جوهرها هو خوض في بحر غريق. لكن عبور هذا البحر هو سبيل الخلاص للعقل العربي وإنقاذه من الحلقة الممرغة التي يدور فيها منذ عدة قرون.

والتطوير الذى أقصده يجب أن يحافظ على أساسيات اللغة بحيث أن من يتعلم العربية بعد التطوير يكون قادرا على فهم ما كتب قبل إجراء عملية التطوير.

لكن كل المؤشرات التي ذكرتها تدل على أن المنظومة اللغوية العربية في حاجة إلى إعادة نظر شاملة. ولأننى لست عالما لغويا أو نحويا فإننى أكتفى فى هذا الكتاب بإعطاء بعض الأمثلة الملموسة لما أقصده بالتطوير الذى لا يخل بجوهر اللغة. فالفرض هو أن يظل العرب بعد مئات السنين قادرين على قراءة القرآن وفهم التراث تماما كما يفهمونه اليوم.. لا أكثر ولا أقل.

وقد اكتشفت بعد أن وضعت بعض الأمثلة أن ما اقترحه قد جاءت به اللهجات بالسليقة لأنه أقرب إلى المنطق وأبعد عن التعقيد غير المفيد. وقد وصلت من هذا المنطلق إلى قناعة بأن تبسيط اللغة العربية سيكون بتقريبها من المنطق اللغوى للهجات، مما يساعد على تقبل الفصحى من كل أبناء الوطن العربى. وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال ستصل نسبة القادرين على القراءة والكتابة إلى ٨٠ وربما إلى ٩٠ ٪. وعندئذ ستزداد الحاجة لإيجاد لغة وسط لكسر حالة الشيذوفرنيا اللغوية التى تحدثنا عنها.

\* \* \*

ولكى نضع تصورا لكيفية تبسيط اللغة يتعين علينا أن نضع أيدينا على مواطن الصعوبة الكامنة فى العربية.

**ومن أبرز المضارقات** التى تلفت النظر فى العربية أن الكلمة تأخذ معناها من التشكيل وليس من موقعها فى الجملة. فالأصل فى العربية هى الجملة الفعلية. وإذا قلنا مثلا : ضرب الشاب الرجل. (بدون تشكيل) فإن هذه الجملة التى من المفترض أنها

واضحة، تحتل معنيين متناقضين لا يمكن التفرقة بينهما إلا بالتشكيل.

فإن كان التشكيل هكذا: «ضرب الشاب الرجل» لكان المعنى أن الشاب قد ضرب الرجل. أما إن كان التشكيل هكذا: «ضرب الشاب الرجل» لكان في هذه حالة الشاب هو المضروب والرجل هو الذى ضربه.

والجملة فى اللغات الحية الحديثة هى جملة إسمية وليست فعلية. والسبب فى ذلك هو ما تجره الجملة الفعلية من التباس لدى السامع أو القارئ لأن المعنى فيها لا يستتبع من ترتيب الكلمات وإنما من التشكيل. مع أن المنطق يقول إن الفعل لا يأتى إلا بفاعل. فالفاعل هو الذى يسبق الفعل وله أولوية عليه.

وأذكر أن والدى الأستاذ محمد مفيد الشوباشى رحمه الله والذى كان من أفضل من يجيدون العربية فى مصر، كان يفضى منى لكثرة استخدامى للجملة الإسمية، التى كنت أجدها أقرب إلى التعبير عن المعنى الذى أقصده. وكان يتهمنى بالتأثر باللغات الأجنبية التى كنت أجدها بفضل دراستى. وبرغم امتثالى لنصائح والدى إلا أننى كنت أشعر بأن الفعل أن الجملة الإسمية أقرب إلى المنطق وإلى التعبير المباشر والسليم عن المعنى المقصود.

**الصعوبة الثانية** التى تواجه دارس العربية هى النقص الغريب فى حروف العلة. وفى مقابل ذلك، هناك وفرة مشكوك فى ضرورتها فى الحروف الساكنة. وإذا قارنا العربية بالإنجليزية نجد

أن لدينا ثلاثة حروف علة في مقابل خمسة لديهم، وعندنا ٢٥ حرفاً ساكناً في مقابل ٢١ عندهم، وغالبية الكلمات والأفعال في العربية تتكون من حروف ساكنة فقط، على عكس كل لغات العالم الحديثة. فكلمة مثل «رجل» أو فعل مثل «ضرب» لا يمكن قراءتها إلا بإضافة حروف علة في عقل وعلى لسان القارئ نسميها التشكيل. فنحن نقول: «را جو لون» و«ضا را با».

ولنتمثل كلمات مشابهة باللغة الإنجليزية. فسنكتب مثلاً: *argh* و *drth* هذه التراكيب هي ضرب من اللامعقول عندهم. لكنها المعقول ذاته بالنسبة لنا. ومن هذه المفارقة جاءت فكرة طه حسين التي ذكرناها من قبل ولم يتقبلها أحد.

**وما يضاعف من المشكلة أن كلمة واحدة من الممكن أن تشكل جملة كاملة في العربية.** وهذا ليس موجوداً في غالبية اللغات الأخرى باستثناءات نادرة مثل فعل الأمر. لكن وجود الكلمة - الجملة وضع نحوي عادي في العربية. فعندما تقول مثلاً: «كتبت» فالفعل يحتوى على الفاعل وبالتالي فقد اكتملت أركان الجملة في عبارة واحدة. وقد يجد البعض ذلك قوة مضافة للعربية. لكن الممارسة تثبت العكس. فلو أخذنا كلمة مثل «قتلت» نجد أن لها عشر دلالات ملتبسة على الأقل، وفقاً لنطقها أو لتشكيلها. فهناك «قُتِلْتُ»، و«قَتَلْتُ»، و«قَتَلْتِ»، و«قَتَلْتِ»، و«قَتَلْتُ»، و«قَتَلْتِ»، و«قَتَلْتُ»، و«قَتَلْتِ»، و«قَتَلْتُ»، و«قَتَلْتِ».

فهل من الطبيعي أن تكون لكلمة واحدة تكتب بطريقة واحدة أكثر من عشر دلالات ؟ ألا يؤدي هذا إلى فتح باب اللبس والفموض

فى المعنى والحيرة والتأويلات المختلفة ؟ وربما كان ذلك أحد الأسباب وراء الخلافات التقليدية بين أبناء لغة الضاد . فهم أحيانا غير قادرين على الاتفاق على معانى اللغة التى يتحدثون بها فما بالناس بمضمون هذه الكلمات وفحواها ؟

ولا بد لمن يقرأ العربية أن يتمتع بملكة التكهن ودرجة عالية من القدرة على الاستنتاج . بل والرجم بالغيب . فغالبية الأفعال والكلمات تحتل عدة معان ولا بد للقارئ أن يختار واحدا منها .

وأود قبل الاسترسال فى مقترحاتى أن أعطى نموذجا واضحا لما أعنيه بالتطوير الذى لا يخل باللغة . فالفيصل هنا هو المقدرة على فهم العربية بعد التطوير لمن لا يعرفها قبل تطبيق عملية التطوير . فإذا تقرر جعل الأرقام حيادية أى لا هى مذكرة أو مؤنثة كما هو الحال فى غالبية لغات العالم . فإن من يقرأ أو يسمع بعد ذلك جملة بها رقم لن يعجز عن فهمها . فلو استقر الرأى أن تكون الأرقام مذكرة ، فقلنا مثلا سبع رجال بدلا من سبعة رجال . لما استعصى فهم ذلك على أى شخص ولو بعد مئات السنين .

وهذا ما أقصده بدقة عن تطوير اللغة دون الانقطاع عن تراثنا .

\* \* \*

**والقواعد الخاصة باستخدام الأرقام هى مثال للتعقيد الذى لا داعى له . لماذا لا نقول تسع رجال وتسع نساء بدلا من تسعة رجال وتسع نساء . لماذا لا نوحّد الأرقام حتى نوفر على أنفسنا تعقيدات لم تعد تناسب العصر ؟**

فالمذيعون في الإذاعة والتلفزيون يبذلون جهدا جهيدا لقراءة الساعة بالعربية الفصحى بالطريقة السليمة. فيقولون مثلا. الساعة الآن الحادية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة.

**وهناك مثال يضرب للتعبير عن بلاغة اللغة العربية وراثتها وتميزها عن باقي لغات العالم.** لكنى أعتبر هذا المثال دليلا جديدا على ابتعاد العربية عن متطلبات عالم اليوم وانعزالها في برج عاجي يضاعف من المحنة الثقافية التي يعيشها العالم العربي اليوم.

فيقال إنه لو ذهب رجل إلى آخر وقال له: إنى قاتل أبك. فإنه سيجهيه لماذا؟ وسيحاول أن يثنيه عن قتل ابنه.

أما إذا قال له: إنى قاتل أبك. فمعنى ذلك أنه قتل ابنه بالفعل وسيكون رد فعل الأب مختلفا تمام الاختلاف.

وواضح طبعاً أن الجملتين تكتنان بنفس الحروف بالاضيق. والاختلاف الوحيد هو في التشكيل.

فهل مثل هذا نقطة قوة في اللغة؟ أم أنها نقطة ضعف خطيرة لأنها تؤدي إلى الالتباس والغموض دون أن تكتسب اللغة بسببها بلاغة في التعبير أو قوة في المعنى.

فالبلاغة تقوم على الوضوح والبعد عن التعمر والتكلف والمبالغة والتضخيم. والبلاغة ليست التلاعب بالألفاظ وإن كان من الممكن أحيانا أن تقوم على ذلك. وقد قيل: البلاغة الإيجاز. ولعل أجمل وصف للبلاغة هو ما قاله الجاحظ: «البلاغة هي التي إن سمعها الجاهل ظن أنه قادر على مثلها».

والبلاغة هي السهل الممتنع التي يتصور أى شخص أنه بسيط وفي متناول اليد. لكن الحقيقة هي أن أصعب شيء هو التوصل إلى أسلوب سهل وجزل عند القراءة، لكنه صعب ومجهد عند التأليف.

**ولعل من أبرز أسباب تعقيد العربية ووقوع الغالبية في شرك الخطأ هو المفعول به.** والمشكلة أن المفعول به في العربية لا يعرف من مكانه في الجملة، وإنما من إعرابه، وبالتالي من تشكيله.

وأرى أنه من الأقرب إلى المنطق أن نقول مثلاً: رأيت رجل طويل يأكل خبز. بدلاً من: رأيت رجلاً طويلاً يأكل خبزاً.

والسبب الوحيد الذي يجعلنا نتمسك بالمفعول به (مُنَوَّنًا) هو أننا ورثناه من نحاة العصور السالفة وأصبح مألوفاً لأذاننا. لكنه من غير المنطقي أن نقبل هذا السبب ونستكين لثقافة الأذن.

وإذا قلنا: رأيت رجل طويل يأكل خبز، فهل يؤدي هذا للقارئ، أو المستمع أى التباس في المعنى؟

وبغير مكابرة فإن الغالبية العظمى من العرب يخطئون في المفعول به عند الكتابة، كما أنهم لا يفهمون معنى بعض الجمل غير المشكلة بسبب ذوبان المفعول به وسط مفردات الجملة حيث أن تركيبة اللغة العربية لا تحدد له مكاناً محسوباً ومعروفاً سلفاً.

\* \* \*

**ومن أوضح الأدلة على معاندة قواعد العربية لسنة التطور تربيع المشتى على أصول النحو العربى حتى بداية القرن الحادى والعشرين.**

فالمشى بالنسبة لكل لغات العالم أصبح كالديناصور الذى انقرض من على وجه الأرض. وغالبية اللغات الحية المتداولة اليوم لم يكن بها مشى أصلا. فهذه الصيغة كانت شائعة فى اللغات السامية القديمة. وقد اختفى مع اختفاء معظمها وألغى بصيغته القديمة هى اللغات الباقية حتى اليوم مع عمليات التطوير التى قاموا بها.

وهناك بقايا مشى تظهر بدرجات متفاوتة فى بعض اللغات السامية الحائية، لكنها لا تصل إلى تعقيد قواعد المشى فى العربية. فالعبرية مثلا بها كلمات تعبر عن المشى خاصة الأشياء المزروجة فى الطبيعة مثل العينين والقدمين واليدين وهكذا. لكن لا تسبب الأفعال فيها للمشى مثل «شربا» أو «قاما» أو غيرها كما فى العربية. ولا يوجد مشى للكلمات مثل «رجلان» أو «امراتان».

ومعنى هذا أن غالبية لغات العالم أدركت أن المفرد والجمع يكفيان تماما للتعبير عن المعنى. وما زاد عن واحد يعتبر ببساطة جمعا سواء أكان اثنين أو مائة أو أكثر. لكن المشى الذى أصبح غائبا عن كل لغات العالم لا زال محورا هاما للغة العربية حتى بداية القرن الواحد والعشرين.

فما فائدة المشى ؟ هل يضيف دقة على المعنى ؟ هل يضيف جمالا ؟ لقد أدرك الجميع أنه لا فائدة من المشى إلا زيادة تعقيد اللغة فهجره الجميع إلا نحن.

صحيح أن المشى له مكانة فى التراث الشعرى العربى وأن أول كلمة فى أول بيت يذكر فى المعلقةات هى فعل مشى وهو: «قفاه فى معلقة



أمرؤ القيس. وقد استخدم الشعراء المثنى كثيرا مثل «يا خليلي» أو «يا ساقبي» و«بكاؤكما» في مطلع مرثية ابن الرومي الشهيرة.

وهناك بيت للمتنبي يعتبره الدكتور طه حسين من أجمل الأبيات في الشعر الفنائي العربي قاطبة كما يقول في كتابه: «مع المتنبي». والبيت المذكور في قصيدة هجاء عنيفة ضد كافور نظمها المتنبي عندما هرب من مصر وهو:

يا ساقبي أذمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما هم وتسهيده

لكن وجود المثنى في الأدب القديم لا يعنى أن نحنط اللغة ونرفض التغيير. فهناك تعبيرات وأساليب كثيرة تركناها لأنها أصبحت معرقة للثقافة.

ويؤدى المثنى أحيانا إلى اللبس في المعنى. فإذا كتبنا دون تشكيل: رأيت فلاحين. فمن الممكن أن يكون المتكلم قد رأى اثنين من الفلاحين أو جمعا منهم. كذلك لو قلنا: مصرع عراقيين في الحرب. فمن الممكن أن يكون المقصود اثنين أو أكثر من ذلك. والتشكيل هو الوسيلة الوحيدة لرفع اللبس في الكتابة.

وقد تخلصت اللهجات العربية من المثنى تلقائيا وأصبح الاثنان جمعا كما يريد المنطق.

\* \* \*

ومن المشكلات الأخرى التي تنفر دارسى العربية جمع المؤنث وتصريف الفعل الناتج عنه. فالجمع في كل لغات العالم المنتشرة

يفضى الكافة وهو محايد لا يخص جنسا دون آخر . لكن لماذا عزل النساء عن الرجال ؟ ألسن بشرا مثلهم مثل الرجال ؟ وقديما قال المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضل النساء على الرجال  
وما النانيب لاسم الشمس عيب ولا التدكير قدر للهِلال

وقد ناقش المجمع اللغوى فى مصدر هذه القضية لكنه من الواضح أن أعضاءه استقروا على ضرورة الحفاظ عليه . ولا أدري إن كان السبب هو تعذيب الطلبة وكل من يستخدم العربية كلفة كتابة ؟

**ويعتبر المؤنث من أعقد التركيبات التى لا لزوم لها لفهم المعنى . فلو قلنا : « النساء كلهن أكلن » أو « النساء كلهن أكلوا » فإن المعنى واضح فى الحالتين . ولن يتصور أحد فى الحالة الثانية أن النساء تحولن بقدرة قادر إلى رجال . وغالبية نفات العالم لا تستخدم تلك التراكيب البالغة التعقيد التى عفا عليها الزمن والتى لا تقدم ولا تؤخر ولا تضيف دقة إلى المعنى .**

وحتى فى اللغة المصرية الدارجة نجد أنه لا يوجد فرق بين المذكر والمؤنث إلا للضرورة . فنحن نقول بالفصحى مثلا : الرجال الذين كذا والنساء اللاتى كذا .. أما باللهجة الدارجة فيكتفى بتعبير «إلى» عوضا عن الذين واللاتى .

ومن الدلائل التي تساق للتدليل على ثراء اللغة العربية كثرة عدد الكلمات. ويقول جاك بيرك في كتابه «العرب» أن أحد علماء اللغة العربية يقدر عدد مصادر الكلمات في العربية بنحو ١٩٠٠٠ يتكون كل منها من ثلاثة حروف. ومن الممكن وفقا لنفس العالم الذي ينقل عنه بيرك اشتقاق أكثر من مائة كلمة من كل مصدر.

ومعنى هذا بحسبة بسيطة أن عدد كلمات اللغة العربية يصل إلى ما لا يقل عن ١٩٠٠٠٠٠ كلمة.

لكن أبا بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب العين للخليل بن أحمد أحصى نحو ٦,٥ مليون كلمة عربية من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي.

وكل هذه الأرقام تعد فلكية مقارنة بفالبية لغات العالم. فالانجليزية لا يزيد عدد كلماتها عن ٢٥٠ ألف كلمة والفرنسية عن ٢٠٠ ألف كلمة وفقا لقاموس «كنوز اللغة الفرنسية». صحيح أن عدد الكلمات لا يجب كل تصريفات الأفعال، لكن الفارق في كل الأحوال شاسع بين عدد الكلمات العربية واللغات الأخرى.

والسؤال هو: هل يعكس هذا العدد المهول من الكلمات العربية دقة وقدرة تعبيرية تفوق أي لغة أخرى في العالم ؟ البعض يرى أنه كلما زادت المعاني، كلما اكتسبت البلاغة أبعادا جديدة حيث يمكن اللعب بالألفاظ والإيحاء دون الإفصاح عن المقصود. لكن التجربة أثبتت على العكس أن هذه الوفرة المتناهية أصبحت تزيد غموض المعاني وتجعل المستمع أو القارئ في حيرة: أي معنى يستتجه من

الكلمة ؟ وكلما زادت الاحتمالات ازداد الغموض والالتباس وكثرت التأويلات.

أما بالنسبة للقوة التعبيرية فقد أثبت الشعر العربى أن هذا كان صحيحا فى عصر من العصور. فالشعراء العرب توصلوا إلى قدر من البلاغة تكاد تصل أحيانا إلى حد الإعجاز. وأنا لا أتحدث هنا عن إعجاز القرآن الكريم الذى نزل بالعربية لأنه معروف للجميع. وقد نجح الشعراء فى العصور الذهبية أن يترجموا أفكارا واحاسيس غاية فى النبل والسمو ربما لم يصل إليها أى شعر فى العائم. لكن الشعر تطور بعد ذلك تطورا ضخما فى أوروبا بعد عصر النهضة وظهر شعراء أبدعوا قصائد بديعة تسمو هى الأخرى إلى السماء السابعة فى عالم الإبداع والجمال.

أما عن الدقة فهذا أمر مشكوك فيه جدا. وإذا كان العلماء العرب قد نجحوا فى الماضى فى التعبير العلمى، فإن العلماء الغربيين قد تفوقوا عليهم بعد ذلك، وأصبحت العربية اليوم تلهث وراء الانجليزية لمواكبة التطور العلمى والتعبير عنه باللغة الدقيقة.



وكان العرب مولعين بالمتراذفات منذ العصر الجاهلى. ففى باب الأسد نقول الموسوعة الإسلامية أن هناك ثلاثة من علماء اللغة العرب قد عددوا ٦٠٠ مرادف لاسم الأسد. والرقم هو «ستمائة» لمن يتصور أن هناك صفرا أو اثنين أضيفا بفعل خطأ مطبعى. وقد قام المستشرق جرونرت بدراسة فى الشعر العربى القديم فأحصى

أكثر من ٤٠٠ اسم مذكور فيها للأسد منها الليث والسبع والغضنفر والهزبر والأسامة والعباس على سبيل المثال لا الحصر.

والجمل له في العربية ١٦٠ اسماً بأنواعه المختلفة، وصحيح أن هناك جملاً بسبعين وآخر بسنم واحدة لكن هذا لا يبرر أن يكون هناك ١٦٠ اسماً مختلفاً للجمل.

ويروى عن أبي العلاء المعرى وكان كفيفاً كما هو معروف أنه داس على قدم رجل عندما دخل أحد مساجد بغداد في زيارته الوحيدة لها، واستشاط هذا الرجل غضباً وشتماً أنا العلاء قائلاً: «إلى أين يا كلب»، فاكتمنى أبو العلاء بأن قال: «الكلب هو من لا يعرف للكلب سبعين اسماً».

فحتى الكلب كان له عند العرب سبعين اسماً على أقل تقدير.

لماذا كل هذه الأسماء؟ ألا تكفى خمسة أو حتى عشرة مرادفات قد تعكس اختلافات بين أسد وآخر أو جمل وآخر في اللون أو في النوع مثلاً؟

وفي الجزء الأول من كتاب «تاريخ أداب اللغة العربية» يتعرض جرجى زيدان للإفراط في المترادفات. ومن الواضح أنه يراه إيجابياً حيث يقول إن «كثرة المترادفات في اللغة العربية وتعدد المعاني في اللفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على أصحابها التسجيع». وفي هذا المجال يذكر أن للأسد ٢٥٠ اسماً فقط. وأنا أميل إلى تصديق الأرقام التي وردت في الموسوعة

لإسلامية. ويضيف جرجي زيدان أن نلزاهة ٢٥٥ أسما وانبت  
١٨٨ أسماً والماء ١٧٠ أسماً .

كذلك فالمطر ٦٤ أسماً والسحاب ٥٠ وللشمس ٢٩ . أما  
الحشرات فهي أيضاً تنعم بنهر مترادفات. فالقسيير ١٦٠ لفظاً  
والطويل ٩١ لفظاً ويضيف زيدان : « ونحو ذلك للشجاع والكريم  
والبخيل مما يضيق المقام عن استيفائه » .

ومن المعروف أن قضية الترادف خلافية في التراث العربي كما  
هو الحال بالنسبة لمسائل لا حصر لها .



**ومن عجائب العربية** أيضاً التعدد المفرط لمعنى لفظ الواحد  
خاصة أن بعض الكلمات تحمل معنيين متضادين. فلفظ «محور»  
كما يقول زيدان. له ٦٠ معنى ولفظ «العين» ٣٥ معنى.. وإذا كانت  
هذه التعددية في المترادفات كان لها ما يبررها في الماضي ليعتد.  
فقد تغير الموقف اليوم تغيراً جذرياً وأصبح الإنسان يبحث عن  
الوضوح والوصول إلى المعنى من أقصر طريق ممكن. فالصفات  
التي كان يفخر بها العرب من أربعة عشر قرناً تحولت اليوم إلى  
معوقات تشل الناطقين بالعربية وتعجزهم عن مجازاة اللغة .

فالمطلوب من اللغة اليوم هو التعبير المباشر والسريع لمورى مع  
إيتاع الحياة وليس «الفرلكة» والاستعراض والبحث عن الغريب من  
المعاني.

وإذا سلمنا بأن ثراء المترادفات والمدلولات هو معيار قوة اللغة، فإن اللغة الإنجليزية التي تعد اليوم لغة العلم الدقيق والأدب الرفيع، تصبح لغة ضعيفة وركيكة حيث أنه لا توجد للتعبير عن نفس المعنى سوى عدد محدود من المرادفات لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة. لكن الواقع أنها تكنى تماماً لتحديد المعنى والدليل على هذا أن الإنجليزية هي اليوم لغة العلم والأدب الأولى في العالم.

لا شك أن وجود الجذور يعطى للكلمات تجانساً غير موجود في غالية لغات العالم. فإذا أخذنا ثلاثة حروف مثل ك ت ب فمن الممكن أن نشق منهم فعل «كتب»، وكلمات «كتاب» و «مكتبة» و«كاتب»، و«كتابات» و«كتيب» وكلها لها معان ذات علاقة ببعضها البعض. أما في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية فإن هذه الكلمات لا علاقة لبعضها البعض بالبعض الآخر إلا فيما ندر. وكل كلمة لها جذور مختلفة وتركيبية متباينة. وفي لغات العالم الأخرى يتم إضافة بضعة حروف قبل أو بعد الكلمة لاشتقاق معنى آخر لها.

فبالإنجليزية مثلاً .

يظهر appear

يختفى disappear

مظهر appearance.

ولهذا السبب. يطلق على هذه اللغات اسم لغات تركيبية.

ولا أدعى أنني أملك حلاً سحرياً للانقسام اللغوي الذي يعاني منه العالم العربي. لكنني أقول أن مثل هذا الانقسام لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وأحشى ما أخشاه كما أثبت أن تأتي حلول جذرية تتصل بيننا وبين تراثنا العظيم ويكون حراس الضاد قد وصلوا إلى عكس مقصدهم. فهم يريدون الحفاظ على اللغة كما هي دون تطوير. فتكون النتيجة أن يكون التطوير أكبر كثيراً مما نريده جميعاً وليس جوهر لغتنا الحميلة التي نفخر بها.

\* \* \*



## الاستثناء العربي

يتفرد العرب بين شعوب العالم بالالتحام الوثيق بين هويتهم ولغتهم. ويقول جمال حمدان في كتاب «شخصية محسر» (الوسيط - دراسة في عبقرية المكان) : «وإذا كان لابد من مقياس مدرج للعروبة. فليس جنسيا هو. ليس بكمية الدم العربي التي أضيفت، ولكنه كمية اللسان العربي التي استعيرت. بمعنى آخر. مقياس العروبة، مثلما هو أساسها. اللغة لا الجنس..»

والتعريف الشائع للعربي كما قلنا، هو أنه من يتحدث اللغة العربية. لكن هذا التعريف لا ينطبق على أبناء الشعوب الأخرى. فلا يمكن أن يعرف الفرنسي مثلاً بأنه من يتحدث الفرنسية، لأن هناك شعوباً أخرى في بلجيكا وسويسرا وكندا وغيرها، لغتها الأم هي الفرنسية. كذلك فالإنجليزي لا يعرف بأنه من يتحدث الإنجليزية وأيضاً الإسباني والألماني والروسي وهكذا.

لكن الانتماء إلى العروبة لا يكون إلا باللغة كشرط مسبق لتدليل على الهوية.

ومع بدايات القرن الحادى والعشرين يواجه العرب هجوماً شرساً يستهدف الأسس الراسخة ثقافتهم الموروثة. ولا شك عندى فى أن الصراع العربى الإسرائيلى يكمن بصفة أساسية وراء محاولات تعديل العقل العربى وتشكيله تشكيلاً جديداً، بحيث يتقبل السلام بالشروط الإسرائيلية.

فأمريكا، والغرب عامة، يسمعون منذ نصف قرن إلى إقناع العرب بضرورة السلام مع الدولة العبرية. ولأن الولايات المتحدة ترفض، أو لا تستطيع، ممارسة أية ضغوط على إسرائيل، فإن الجانب الذى تستطيع إقناعه بالحجة أو بالقوة هو الجانب العربى.

ومنذ كامب ديفيد وقبلها، لجأت واشنطن إلى كافة أشكال الضغوط على الدول العربية التى تعتبرها حليفة لها، وهى دول ترتبط بالفعل بمصالح حيوية مع أمريكا لكن كل النصائح، والضغوط فشلت فى إقناع العرب بالاستسلام لإرادة إسرائيل والتخلى عن القضية الفلسطينية، أيا كان رأينا فى أسباب ذلك.

وقد أدرك خبراء الغرب أن منبع الرفض الحقيقى ليس الحكام العرب وحدهم، وإنما الشعوب العربية. وأن الأنظمة لا تستطيع حتى لو أرادت أن تقبل بتسوية غير عادلة.

وقد أسهمت حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى زيادة الفجوة بين الغرب بزعامة أمريكا من ناحية والعالم العربى من ناحية أخرى. وهنا لم يجد الغرب حلاً إلا فى إعادة تشكيل العقل العربى، ليتواءم مع المنطق الغربى ويخضع لرغبات إسرائيل. وتبلورت شيئاً فشيئاً

فكرة إعادة تشكيل العقل العربي فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير:

وقد بادرت الشعوب العربية برفض هذا المشروع لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن تتدخل إرادات خارجية في تشكيل عقل الأجيال الصاعدة من أبناء الشعوب العربية.

لكن هل يعنى ذلك أننا لسنا في حاجة إلى إصلاح ؟

الإجابة في رأي أننا اليوم في أمس الحاجة إلى إعادة النظر في المنظومة العقلية العربية بكاملها فقد أصبح العرب يعيشون وكأنهم على هامش المجتمع الدولي بسبب انكسارهم على مجموعة من الأفكار المتحجرة التي نستلهمها من ماضينا ولم تعد تجارى زماننا.



ولعل اللغة العربية هي نموذج واضح ورمز ملموس لتحجر العقل العربي ورفض التفسير من منطلق التمسك بالماضي. فنحن نرفض المساس باللغة العربية بدعوى أنها لغة القرآن لكن الواقع من خلال التحليل الذي أوردته في هذا الكتاب هو أن تواصل الأجيال المقبلة مع القرآن والدين الإسلامي يمر حتما بتطوير اللغة وتطويرها لمقتضيات العصر. فالتطوير من مصلحة الدين كما أنه من مصلحة الشعوب العربية.

وكما أثبتتُ في الصفحات السابقة، فإن الدين لعب دوراً حيوياً في الحفاظ على العربية. وإذا أخذنا مثال مصر في عصور الحكم

التركي المملوكي منذ الفزو العثماني وحتى عصر النهضة في منتصف القرن التاسع عشر، سندرك حقائق عن اللغة ربما لم نفكر فيها من قبل ولنطرح على أنفسنا هذا السؤال : من كان يجيد اللغة العربية الفصحى في تلك الحقبة ؟

الطبقة الحاكمة كانت تتحدث التركية بصفة أساسية، وكانت هذه اللغة هي لغة التعامل الرسمي والفرمانات والأحكام، أما أبناء الشعب فكانوا يتحدثون اللهجة المصرية الدارجة وكانوا في غالبيتهم الساحقة لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يفهمون الفصحى. الفئة الوحيدة التي كانت تجيد العربية هي علماء الدين ودارسو أو خريجو الأزهر الشريف. وكان عدد هؤلاء لا يزيد عن بضعة مئات تعد على أصابع اليد الواحدة. ولولا هؤلاء لتعرضت العربية في مصر إلى أخطار حقيقية.

وكما أشرت في كتاب «الداء العربي» فإنه عندما أصدر الطهطاوي كتابه الشهير «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» أمر ولي النعم محمد على باشا بترجمته إلى اللغة التركية حتى يستفيد منه الحكام الحقيقيون للبلاد وغالبيتهم المعظمى لا يجيدون سوى التركية.

وخلال القرن العشرين، أدت وسائل النقل والاتصالات إلى التقريب بين شعوب العالم وبدأت ترسم معالم قسمات مشتركة تجمع بين أبناء البشرية بصور متفاوتة.

ولا شك أن الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، برغم ضراوتهما البالغة، لعبتا دورًا هامًا في

التقريب بين شعوب العالم، وفي إيجاد قاسم مشترك أعظم من القيم والمبادئ والمثل تصلح للمجتمعات الإنسانية في كل مكان.

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى، بدأت شعوب العالم تتفق على مبادئ عامة، وتلفظ بعض الممارسات التي كانت مقبولة من الجميع لقرون طويلة. فكان هناك اجماع تحقق تدريجياً حول إلغاء الرق ونهاية عصر العبيد، وإلغاء التعذيب البدني الذي كان مباحاً بل ومستحباً في غالبية مجتمعات العالم؛ كما ظهر اتفاق عام حول ضرورة إعطاء المتهم فرصة الدفاع عن نفسه من خلال محام يترافع عنه أمام المحاكم.

واستقرت هذه المبادئ في أذهان كافة مجتمعات العالم وأصبح من الصعب على أي مجتمع أن يستثنى نفسه من الالتزام بها.

واليوم تجمع غالبية مجتمعات العالم على مبادئ ومثل تتفق حولها بصفة عامة مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحرية التعبير، وحرية التجارة، والمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، ومساواة جميع المواطنين أمام القانون.

لاشك في أن الدول الغربية الكبرى كثيراً ما تستغل هذه المبادئ لصالحها وتخرفها عندما تصطدم بمصالحها العظمى، ولا تعبأ باعتراض شعوب العالم التي ترفع صوتها رفضاً للظلم الواقع عليها. ومع ذلك، فإن رفض هذه المبادئ من أي طرف يعد نوعاً من الخسرواح على القانون الدولي الذي يتمثل في الأمم المتحدة

والمنظمات الدولية والعرف الذى أصبح سائداً فى العلاقات بين الدول المختلفة.

صحيح أن لكل حضارة هويتها الثقافية الخاصة، لكن القاسم المشترك الأعظم فى القيم والمبادئ العامة أصبح ظاهرة لا يمكن التفكاك منها فى القرن الحادى والعشرين.

\* \* \*

فهل يعقل مثلاً أن يذهب عربى إلى طبيب غربى فيعطيه دواء مناسباً لحالته فيعترض المريض قائلاً : هذا الدواء ينفع أبناء بلدك، لكنه لا ينفعنى لأنى عربى ؟!

للأسف أننا نجد مواقف مشابهة لذلك الموقف العبثى عندما نرفض أفكاراً واردة من الخارج بادعاء أنها تتناقض مع ثقافتنا وديننا.

وإذا اقتصرنا على مجال اللغة وهو موضوع هذا الكتاب فإن التيارات الغالب عندنا بقول : كل لغات العالم قابلة للتطوير والاصلاح.. إلا لفننا العربية. ثم يسوقون حججاً عديدة لتبرير هذا الاستثناء، على رأسها أن العربية لغة القرآن.

وقد سميت فى صفحات هذا الكتاب أن اثبت كم أنه من مصلحتنا كمسلمين حريصين على ديننا وتراثنا، أن نقوم بتطوير شامل للمنظومة اللغوية العربية ولا يمكن أن تظل العربية متمتعة عن أى تحديث دوناً عن كل لغات العالم الحية. فهذه النظرة التى تستثى العرب من ممارسة التجارب الناجحة فى العالم هى أهم أسباب تخلف العالم العربى عن ركب الحضارة العالمية.

بالتأكيد أن لنا خصوصيتنا التي لا بد أن نقيم لها ألف حساب  
فنحن قد نقبل حرية المرأة، لكننا لا نقبل الانحلال الخلقي، ونقبل  
حرية الرأي، لكننا لا نقبل التهجم على الأعراض.

والمشكلة أن البعض عندنا يتذرع بخصوصية الأخلاقيات العربية  
لرفض حرية المرأة وحرية الرأي بدعوى أنهما تؤديان إلى الانحلال  
والفوضى وتعارضان قيمنا الدينية. ويظف هذا الرفض بحجج  
واهية تعطلى على البعض نظرا لتبجيلنا لديننا الحنيف والتزامنا  
بقيمه ومبادئه.

والاستثناء العربي له وجود بالفعل على أرض الواقع، فنحن  
أسعاب ميراث ثقافي ينذر أن يتواجد لدى أي حضارة أخرى في  
العالم وثقافتنا تعطى أهمية كبرى للروحانيات، والأخلاقيات،  
وعداوت الإنسان، وترابط الأسرى، والتراحم وكلها مثل عظمية  
توارثناها جيلا بعد جيل، ويكون من الجنون أن نفرط فيها، بل  
علينا أن نتمسك بهذا الاستثناء الإيحائي الذي يميزنا عن باقي  
حضارات العالم.

لكن أن يكون الاستثناء العربي هو استثناء من تقبل الديمقراطية  
ومثل الحرية، وحقوق الإنسان، والمساواة بين الرجل والمرأة،  
ومساواة الجميع أمام القانون، فهذا استثناء سلبي يجعل من العرب  
جماعة خارحة على القانون الدولي والأعراف التي اتفقت عليها  
الإنسانية مع بداية القرن الحادي والعشرين. وقد أصبح واضحا  
اليوم أننا لا نستطيع أن نعيش في جزيرة معزولة اسمها العالم  
العربي:

ورفضنا لأى تطوير ملموس فى قواعد النحو والصرف العربى هو دليل صارخ على أن فهمنا للاستثناء العربى هو فهم سلبى يعوق أى تقدم للعقل وبالتالي أى تطوير للمجتمعات العربية.

وإذا كان علينا أن نرفض بشدة أن يتحكم أحد فى عقولنا، وأن يملأ علينا أسلوب تفكير معين، فإن علينا بنفس القدر أن نرفض من ينادون من بيننا بالتحجر والانغلاق ورفض كل جديد.

نعلم من عصور الدولة الإسلامية لعب تجار الدين على وتر الإيمان العميق للشعوب العربية وجهلها بتعقيدات اللغة الفصحى، ناستخدموا كلاما مبهما وتعمدوا استخراج أصعب الكلمات والتراكيب اللغوية ليبهروا الناس فيصدقوهم، ويتبعون ما يقولون من منطلق إيمانهم الراسخ بالدين، ولازال البعض فى العالم العربى اليوم يستخدم نفس الأسلوب، عامدين إلى تسييس الدين واستمالة نساء الشعب البسطاء المسحورين بالكلم.

وحتى نعتبر اللغة من ثوابت العقل العربى التى نفخر بها، والواقع يملأ علينا أن نفخر بتراسل الأديب والفكرى واللغوى، لكنه يملأ علينا أيضا أن ننتقص ثائرين على قواعد النحو والصرف والتعقيدات اللغوية التى تغلق أبواب العقل العربى وتحبسها فى الماضى البعيد، وفيما أملاء السلف من آراء وأفكار لم تعد تناسب العصر الذى نعيش فيه.

نقد تأخرنا أكثر من ألف عام عن إحداث تطوير حقيقى فى اللغة العربية بسبب ميل العقل العربى إلى التمسك بالتقديم



وتقديس كلام السلف، فعلياً أن نتدارك دون إبطاء كل هذا الزمن الذي راح هباء وجعل الآخرين يتفوقون علينا ويتحكمون بالتالي في مصائرنا.

\*\*\*

ولا يمكن اعتبار اختيار السياسة اللغوية لأي مجتمع على أنه من ثمار الحسنة أو أنه اختيار محايد. فإزاء هذا الاختيار سياسة عامة لكل مجتمع تقوم على مفهومه العميق لهويته.

وبالنسبة لنا في مصر فإن كنا نرى أن مصر للمصريين وحدهم،  
وأنه علينا أن نفتتح أنفسنا عن الحسد العربي، فإنه من الممكن  
عندئذ أن نتجه إلى اللهجة المصرية ونعطيها الأولوية. أما إذا كنا  
مقتنعين بأن مصر جزء من ثقافة أوسع، ومن عالم أكبر هو العالم  
العربي، فإنه يتعين علينا في هذه الحالة أن نتمسك باللغة التي  
تربطنا بجذورنا التاريخية كما تصلنا بامتدادنا الجغرافي الطبيعي.  
ولاشك أن هناك من يتربص بعالمنا العربي ويتمنى تقطيع  
أوصاله وتفكيك الروابط بين أقطاره ومن أقواها اللغة.

فالعالم العربي يكاد يكون كما قلنا الكيان الوحيد الذي يتمرد على إرادة واشنطن وخاصة في علاقته بإسرائيل. فليس مرشحاً أن نسمع من يؤكد أن العالم العربي مجرد حرافة ووهم كبير. ولن نسمع من يطالب بنبذ اللغة العربية وجعل للمحادثات هي اللغة القومية الرسمية لبلادنا.

وبالتأكيد أن تجارب الوحدة فشلت وستفشل في المستقبل  
منظور. لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد عالم عربي له مصالح  
مشتركة ورؤى متقاربة ووحدان متوحد. ومن المؤكد أن اللغة العربية  
هي العنصر الأساسي في ترابط الوحدان العربي. ولو تركنا هذه  
اللغة نتحطم فوق صخور عاتية فإننا نهدم فكرة من أهم أفكار  
لقرن العشرين. وهي وجود عالم عربي واحد له صفات وخصائص  
متميزة عن باقي الكيانات الثقافية.

\* \* \*

وأعلم أن الأفكار الواردة بهذا الكتاب ستكون بمثابة صدمة  
لبعض الذين اعتادوا السير في الطرق المعبدة التي مهدها السلف  
منذ قرون طويلة. ويسير عليها كل من جاء من بعدهم في حالة  
استكانة عقلية غريبة.

وأعلم أن بعض من يعتبرون أنفسهم حراس اللغة العربية  
سينتمضون غضبا من الاقتراحات التي يتضمنها هذا الكتاب.  
وأعرف مقدما الاتهامات الجاهزة التي ستوجه للأفكار الواردة في  
هذه الصفحات فتقتى كبيرة في نزعة المزايدة واللعب على وتر  
الدين والتقاليد والموروث وكل القيم التي تؤمن بها جميعا بنفس  
الدرجة. لكننا نفهمها من منطلقات متباينة.

وأكد أسمع من يتساءل عن مدى تخصصي في اللغة العربية  
وهي الحجة التي يواجه بها كل من يحاول الخروج عن الطرق

المحسوفة والممهدة والتي أصبحت الأحبال الماضية عليها، لتتبعها مع هذا ثم تعد صالحة لحسن الحالى وللأحبال القادمة إذ أن اللغة كما يقول عميد الأدب العربى هى ملك لكل من يستخدمها .

ومع كل ذلك، فهناك على ثقة تامة من أنه سياتى اليوم الذى يصبح فيه العرب إلى بساط نعمتهم حتى لا تواجه لغة واحدة تعرضها للخطر، فلماذا لا تبدأ من الآن ؟ ألا تكنى لقرون لتى ضاعت منا هباء؟

وكما قلت فقد تمت عملية تطور عشوائية لغة على أيدي المفكرين و المبشرين من محسر والساد وكل البلدان العربية. وخاصة من خلال الصحافة. ولا ينبغي اليوم أن يحدث أى شطط أو قرارات منفردة بالتطوير من أى يد عربى، أيا كان. ولا ينبغي أن يتأثر المثقفون وعلماء اللغة بالخلافات السياسية وحررات من الحكام فكل هذه الخلافات رائدة. اما لغة هى راقية.

فلنكتب الجامعة العربية وذراعها الثقافية المعروفة باسم « اليكسو » على مهمة تقنين التطوير الواقع، وإعادة النظر في مس التسواعد والنحو. ولتشكل الجامعة مخبرا من الجامعات العربية الخمس الموجودة بالعائم العربى لأن.



والمعضلة التى ستواجه الذين يتصدون مهمة تطوير اللغة تسمى فى ازدواجية الهدف : الاقتراب من اللغة العامية التى تستخدم

الشعوب العربية للتفاهم اليومي. وفي الوقت ذاته عدم القطيعة مع اللغة العربية الأصيلة، لغة القرآن ولغة الأدب التي مارسها العرب خلال القرون الماضية.

وفي النهاية فإن كل ما أطلبه من القارئ الكريم هو أن يتمهل قبل أن يصدر حكمه على هذا الكتاب. فما جاء به يسير ضد التيار الغالب، وعكس الموقف الذي اتخذته العرب من لغتهم طوال القرون الماضية. وأفهم أن يكون رد الفعل الأول هو الرفض القاطع للفرضيات والاقتراحات التي عرضتها في الصفحات السابقة، فقد اعتدنا على خط تفكير معين تربينا عليه وفطرنا على تقديسه وعدم مراجعته أو حتى مناقشته.

لكننا لو فكرنا بشيء من الموضوعية لاتضح لنا أنه آن الأوان لإعادة النظر في مسلمات طالما آذتنا، وأوضاع ثقافية متحجرة هي السبب الحقيقي وراء تعطيل مسيرة التقدم في العالم العربي بأكمله.

\*\*\*

# الفهرس

٧	..... مقدمة
١٩	..... برج بابل
٢٧	..... هل هناك لغة عالمية ؟
٥١	..... رسالة إلى حراس الضاد
٧١	..... هل العربية لغة مقدسة ؟
٩٣	..... المسيحيون والعربية
١٠٩	..... المتنبى يخاف من الإعراب
١٢٥	..... شيزوفرينيا لغوية
١٤٣	..... غاية اللغة
١٦٣	..... ضد تحنيط العربية
١٨٣	..... الاستثناء العربي

## مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩٨٤ / ٢٠٠٤

I.S. B. N. 977 - 01 - 9069 - 1



### صدر للمؤلف

- ١٩٩٢ كتاب «هل فرنسا عنصرية؟» .
- ١٩٩٤ مجموعة قصص قصيرة بعنوان :  
«الشيخ عبدالله، أخذ عنها» فيلم بطل  
من الجنوب»
- ١٩٩٥ مسرحية «لن تسقط أورشليم» .
- ١٩٩٨ صدرت ترجمة «لن تسقط  
أورشليم» بالفرنسية عن دار نشر لارمتان  
مع مقدمة للدكتور بطرس بطرس غالي .
- ١٩٩٨ «نهاية التفكير، دراسة فكرية» .
- ٢٠٠٢ «الداء العربي، دراسة فكرية» .

